ظلام وردي

الكتاب: ظلام وردي.

المؤلف: آلاء بِشر.

الغلاف: علي إيهاب.

رقم الإيداع: 13064

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6886 – 38 – 4

المراجعة اللغوية: مكتب مدينة الكتب للخدمات.

الإخراج الفني: دار المدينة للنشر والتوزيع والترجمة.

رئيس مجلس الإدارة: محمود عادل محمود

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز لأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو كان أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

العنوان4 ح جامع بلال– الشرابية - القاهرة

البريد الإلكتروني: Citybooks20@gmail.com

قصص

ظلام وردي

آلاء مُحَمد الحُسيني بِشر.

"ما قبل البداية"

قد حان إسدال الستار على نهاية مراهقة أبيّة لشروق كاتبة شابة تُغزل الحروف وتَتَغزَّل بِها،،

"هنّا يَكمُن صَمتِي. . . "

السلام والتحية وبالغ الأسى على من يموتون في كل ساعة من عناء حب من طرف واحد، من وجع مشترك ومصير مختلف، ما دام قلبي ينبض بالأمل، فكل دقة بداخلي قادرة على الحياة، على إحيائي بمفردي، نبضي يرفض الاستسلام كفاكم عبثًا بقلوبكم..."

"طاردتني فكرة الانتحار كثيرًا لكنني واصلت الكتابة"

"ربما أكون قد أخطأت دون قصد مني، ويمكن أن تكون سطوري حجرًا بصدرك وتثقل على روحك، لكن الأكيد أنني لم أكتب إلا لأخفف وجع قلب وأنين روح مشترك، إنَّ كنت قد أسأت ولم أتمكن من نيل ثنائك، فلا تُحقر اجتهادي وانتصاري على كسلي، وإن كان الغرب يدعم الفاشل حتى ينجح ونحن نحبط الناجح حتى يفشل، فلتتخلى عن هذا المنهج قليلًا، فكل خطأ يمكن له أن يصلح، يُمكن أن يصل القمة"

(ثُلاثَاء)

الثُلاثَاء بجبروته يحتل العالم، لا أعتقد أن ذلك اليوم يمر بسهولة على جميع البشر، دائمًا هو أكثر الأيام ازدحامًا في الأسبوع، ضوضاء المنبه تثير في قلبي اشمئزازًا وليس هناك دافع للنهوض إلا لو أغلقت المحاكم بابها أبديًا.

على مضض وفي تثاقل يغادر غرفته دون رغبة منه فيلقي نفسه تحت سلطة مياه باردة عله يفيق رغم أن ما بداخله ضجر وليس نعاسًا.

بسرعة وعلى عجل يرتدي ملابسه ويصطحب الجريدة من على الطاولة ومنها إلى الباب يلتقط مفاتيح سيارته ويلقي نظرة على ملابسه في المرآة العتيقة المثبتة على الجدار في مدخل الشقة حتى صارت جزءا منه، ويشرع طريقه المعتاد إلى مكتبه بروتين سخيف معتاد.

السيارة تشق طريقها على مهل أو تثاقل المرض، سيارة أبيه التي تشبه مخلفات الحرب ولا سبيل لتغيرها نظرا لعدم وجود "النية"، هكذا يطلق على كل شيء لا يملك نقوده.

عمارة طويلة ذات سلالم لا تنتهي، من ذلك الطراز الفريد الذي يميز شارع فؤاد (بالإسكندرية)، مكتب محاماة من ثلاث غرف لا يخلو من لمسات حديثة تضفي على المكان رقي العصر الحالي بروح العصر الذي انتهى.

صالة انتظار طويلة لاستقبال الموكلين في نهايتها مكتب تجلس عليه "هند" تجيب اتصالات العملاء وترتب المواعيد وتقوم ببعض المهام البسيطة.

بادلها التحية على عجل متجها للغرفة على يمينه، تلك المغارة شديدة الاتساع بمكاتبها الأربعة، كل مكتب بجانبه أرفف عتيقة مكتظة بالأوراق وكتب القانون ودساتير لا حصر لها، يلقي التحية بسرعة ويسأل عن الجو العام

- صباح الشباب، كيف حال الرومي الكبير؟
- تجيبه "زينب" بصوتٍ عالٍ، سأل عنك البارحة بعد مغادرتك وأجابه "مُحسن" أنك أخذت أوراق قضية "الاختلاس" لتعيد مراجعتها قبل جلسة اليوم، تفطر الباذنجان المقلي والفول مثل "صفوت" أم تنتظر معنا ونطلب دجاجًا مشويًّا على الغداء!
- دجاج مشوي على الريق لا يصح للمرافعة، شطيرتان من البطاطس تكفيان والكثير من الجزر المخلل، سأذهب بعد المرافعة لإصلاح السيارة، إن عاد وسأل قولي إنني مريض بالسهر على القضية، إن سأل من الأساس!
- تدخل "أميرة" بصندوق محكم التغليف، تضعه على مكتب "إسلام" وتقول: لقد أحضره مندوب توصيل بالأمس، واستلمته بالنيابة عنك.

يفتح الصندوق بفضول جم وسط ترقب الجميع، يخرج علبة من القطيفة الزرقاء كاشفًا عن ساعة فضية لامعة من ماركة غالية، ومن بعدها عدة هدايا صغيرة من نوعية عطر رجالي وميدالية وقلم حبر

وكتاب، فضول غريب يجتاحه يحل محل الانبهار، الجميع يبدي تعليقاته ما بين الاستخفاف والتلميح بقصة إعجاب أو التبارك مغلف بالحقد على روعة الحظ، عيون لامعة بين الغيرة والحسد.

مليارات التساؤلات تعصف بعقله، هدية ليس لها أية مناسبة، ولا أحد يعرف محل عملي ليسبقني إلى هنَّا، يفكر بصوت عالٍ والجميع حوله يبطل كل حجة يأتي بها.

- هل يكون موكلًا كسبت له قضية وأراد شكري!! يجيبه "مُحسن" أنت هنَّا منذ أسبوعين فقط، لم تترافع حتى الآن.

-يمكن أن يكون موكلًا من موكليَّ السابقين، ثم يعود ويكرر أن لا أحد يعرف محل عمله الجديد.

- هل يمكن أن تكون لأحد غيري؟! ترد "زينب" أن المندوب قد ذكر اسمه ثلاثيًا.

الحيرة ولا شيء يسيطر على الأجواء، كل أصدقائي لم يحدث أن أهداني أحدهم مثل تلك الهدية، أقاربي إن رأوني صندوقًا لأخذوني بعنف، غير أن ليس هناك حدث أو سبب أو مناسبة لتلك الهدية.

ساعة وساعتين وثلاثة وأربعًا ثم خمسًا يعمل بعقل غائب، صدره يغلي من الفضول وشعور امتنان رهيب والساعة في يساره تسارع دقات قلبه وتذكره بغائب لا يعرفه لكنه منشغل بأمره.

لم يستطع التركيز، تأكد من محتويات الصندوق مرة ثانية وربت على الساعة في معصمه وهرع إلى السيارة ومنها لساحة محكمة الإسكندرية،

لا يمكن أبدًا التركيز في تلك الأجواء، يعتصر ذاكرته للوصول لصاحب الهدية، يعاود النظر في الأوراق التي أمامه وبحركة عبثية يقلب محتويات الصندوق.

ينتشله من ثورات أفكاره صوت حذاء بغيض، اقتراب الصوت إليه يعني أن صاحبه يقصد مكانًا قريبًا منه، اللعنة على نساء الأرض بضجيج وسامتهم، صوت أنثوي رقيق ينادي باسمه، يستحيل أن يكون أستاذ جابر عبد المقصود صاحب القضية، يرفع رأسه شغفًا بإجابة النداء، لم نعرف أبدًا أن البدر يظهر الواحدة ظهرًا، لم يخبرنا أحدًا أن البدر في أصله امرأة في زهو العشرينات ترتدي معطفًا من القطيفة البنية ووشاحًا من الأبيض حول عنقها، من أين يعرفني كل هذا الجمال؟

أجاب بارتباك بعد صمت أفكاره، أهلًا وسهلًا.

- كيف حالك يا "إسلام"
- بخير كثير، لا أحد يسمع تلك النبرة من هذا الجمال ولا يكون بخير، اعذريني، يختلط علي الأمر، هل تقابلنا سابقًا!!
- تقابلنا سنوات، لكنك لم ترني منذ زمن رحل، لم أعطلك طويلًا كما حدث بالماضي، أنا هنَّا من أجل الاحتفال بكتابي الذي وعدتني منذ سنوات أن نحضر توقيعه معًا، قصة حب تحطمت بالتأكيد لكن الوعود لا تموت بالفراق، أعلم أنك لن تقرأ الكتاب ولو قرأته لعرفت كل شيء من أولى صفحاته، ربما أصررت أن تكون هديتي لك مجهولة لأستحوذ على تفكيرك دقائق، لينشغل عقلك بأمري حتى وأنا مخبأة على الجهة الثانية من لغز مجهول، دقائق منحتني السعادة عوضا عن كم

السنوات التي تجاهلتني فيها عمدا أو دون قصد، لتخلف في قلبي آلاما مزمنة.

أرجو أن يكون ذوقي في الساعة قد نال رضاك، ستكون الميدالية مناسبة جدًا لمفاتيح السيارة الجديدة، أعرف أن القراءة ليست من اهتماماتك لكنها كل ما أملك وكل ما أحب في الحياة، سررت بإقامتي القصيرة في عقلك.

بالمناسبة، لماذا دومًا نكتب لأشخاص لا يجيدون القراءة!! ولو قرأوا لم يستطيعوا فهمنا!!

"هل يمكن للسنين أن تكون بمثل هذه القسوة!! تخدعنا بالنسيان وتوهمنا بالشفاء والتئام القلب ثم تمر وتدير لك ظهرها كاشفة عن ضحكة سخرية منك سذاجة اعتقادك فتذكرك بعمر مضى كأنه الأمس!!"

صدمة أصابته في قلبه فرد بنفس الهدوء المستفز، ألم أخبرك في أخر لقاء بيننا استحالة اكتمال قصتنا نظرًا لعدم وجود النية!!

تجيبه بصمت حديثها وترقرق عينيها.

عذرًا يا سيدتي، موعد جلستي وللأسف الشديد، أحيانًا يغادر المرء تاركًا قلبه لا لشيء سوى أنه لم يعد ينفع بعد الفراق ولا سبيل أبدًا للبقاء، كل الأشياء تتغير إلا الثلاثاء بقسوته، الساعة تضيق جدًا على معصمي ولا عهد لي بالقراءة ثم ماذا يفعل العطر الغالي لملابس لا تجف من العرق، سررت برؤيتك وأعتذر بالانصراف نظرًا لعدم وجود النية في البقاء.

(مِطفأة سَجائر)

ما بين مصحف يعلوه الغبار ويوم يمر تنقصه إحدى الصلوات، أصابع تحتضن لفائف التبغ، لسان يردد أسوأ الكلمات، قلبٌ ينزف دمًا حزنًا على صاحبه، دموع أمٌ على حال ابنها، لسان أب لم يكف عن الدعاء أن يعيد خالد لربه سالمًا، إبرة طائشة محملة بالسموم، إحساس وهمي بالسعادة وبقايا ضمير تتوسل صاحبها أن يفيق" اترك البحث عن التفاهات وابحث عني قليلًا، صدقني لن أجعلك تطيل البحث، سأقتفى أثرك لتجدني، أرجوك لا تثير شفقتي على نفسي في أنك لا تفعل "سحابة من الدخان سوداء ككل شيء في نظره وأفكاره تلاحقه والاختناق يداعب رئتيه، يُقال إن رائحة الموت تخنق الأنفاس، لكن ماذا عن نفاذ ذرات الهواء، التوقف عن التنفس رائحة ماذا!

يعلو صوته بصعوبة محاولًا الدفاع عن نفسه، ماذا عسايّ أن أفعل! تقبلت خيبتي وابتلعت حسرتي بهدوءٍ تام، لم يكن الانسحاب باختياري، أنا مُجبر على الصمت، كان عليَ أن أسدد ضريبة التجربة.

مخدر يسري في عروقه ويأس يسبح في فضائه، ضحكات صاخبة، وشهادة تخرج تحمل عار الامتياز، اطفئوا النيران ودعوا للأحزان حريتها، ألم، قهر، ظلم، حسرة، ذل، ندم، ذنوب، بُعد عن الله، ويجلس تختلط دموعه بضحكات مزرية تحمل طابع مخدر أثير.

مرآة ملقاة بإهمال وشبح وجهه يستعطفه "لا تحمل نفسك فوق طاقتها يا أنتَ، لا ذنبَ لنّا في فقرنا، فقط العار هو الغباء، لا تلق اللوم على نفسك الهزيلة، بل اشحذ غضبك نحوهم وصُبَّ عليهم جام غضبك، لدي حل يناسب عدالتهم المزيفة، انتابتني الحيرة، لماذا لا توجد طريقة أسهل للانتحار، كأن نقتلع الذاكرة مثلًا؟! ثم أدركت أخيرًا أن قتل الأشياء التي تعاود الحب، وتَحنَّ وتَشتاق، يعني الحياة لا الموت.

يلقي بمطفأة السجائر لتستقر بمنتصف المرآة، اصمت يا هذا، واختفي من وجهي للأبد.

يعاوده الصوت رغم تهشم وجهه في شظايا الزجاج "لا تستهِن الأمر يا صديقي، فهناك أناس ما زالت تؤمن بأن التَّخلي عن الحلم هو أسوأ أنواع الانتحار"

ينتفض من جلسته ويصرخ "دعني وشأني قد كنت مثلك ساذجًا غبيًا أو طفلًا نقيا كنت أظن بأنني حينما أتجاوز الثالثة والعشرين وأحمل تلك الورقة القابعة داخل الإطار الزجاجي بهذا الذي يسمي امتيازًا سيفتح لي باب الملك وأتربع علي أحد كراسي هيئة التدريس بالجامعة، والحبُّ الذي يتوج ليصنع حياة من السعادة والأمل، لكنّه الفراق أو المُسمى اللطيف للترك، التفسير المنطقي للغدر أو ضريبة من يحب بعمق. ظننتها أحلام بالصبر والجهد تتحقق، لكنني نسيت بأنَّ الأحلام تتبخر فور صدور مُنَّبه الواقع وحين تدق أجراس الواسطة والسُلطة التي تتغذى علي كسرة قلب قضى سعادته كاملة في رسم ذاك الحلم، بِئس القلب الذي يخشى سفاح الآمال، علمونا في صغرنا أن نكره الموت، أن

نخافه دون أن نعلم ما هو الخوف أو ماذا هناك بعده يخيف، كبرنا وتذوقنا الفراق وصرخنا من ألمه، لماذا لم يحذرونا منه....

صرخات طفلة، اصطدام سيارتين، تكسير زجاج، طبيب يهرع لغرفة العمليات، دموع، ابتهالات لله...

يستيقظ خالد في إحدى غرف المستشفيات، ترقد بجانبه زهور ذات السبع سنوات يُقال أنها متلازمة داون، لا يُهم... الأهم في الأمر أن تلك الزهرة قد فقدت قدميها نتيجة تصادم سيارة أبيها بسيارة خالد حين سكره، لا ليس هذا الأمر حقيقيًا يا صغيرتي لقد فقدتِ قدميكِ نتيجة تصادم أفكاري في وحل اليأس والإدمان، يلقي بنظره للوراء مُغمضًا عينيه "لا جدوى من الحزن، إذا وَجَبَ عليك الانتصار، فاهرب من البؤس أوّلًا".

أعدك يا صغيرتي بحق ذاك الكروموسوم الذي يفرق بين نقاء عالمك وظلم عالمنا، سأعود خالد المعلم الذي يحيا على ابتسامة طفل يَخط بقلمه، أهلًا بخير لا أعلمه، أهلا بعوض من الله أضعاف ما يعانق قلبي من فقد.

أعدك يا زهرتي، وأنا مدين لمزاجيتي وغرابة أطواري، كنت سأنهي رباطي بالعالم وأقطع شراييني في الصباح، الآن أنا أكثر رغبة في الحياة، بإمكاني أن أغني على الجرح المُتصل بألم في قلبي وأسخر من كل لحظة بكيت لأجل وهم.

إليها... تلك التي أمرّضتني بحبها، محاولاتي لإصلاح الفراق بيننا لا تنتهي، لا أتخلى مطلقًا عن حاجات قلبي، الذي انتهى.. أن أحاول

لأجلك.. ما الحل إذا كان ميل قلبي نحوك يفقدني توازني! لا أعرف الفشل مطلقًا.. وأن يحترق كبريائي هكذا! هو بشاعة الإعدام لو تعلمين، ما زلت كما عاهدتِني أحاول باستماتة.. لكن لأجلي..

إليه... ضميري الذي أيقظ أملي وروحي، أنا هنا خالد، ويَسكن قلبي الأمل لا الحب، إما أن توأد مشاعرك أو تقتلك هي. لم أكُن بخير، لكن الأهم أنني انتصرت في إخفاء هزائمي، تعثراتي تخصني وحدي تخلصت من يأس أسود، لحظات الفشل لا تليق بي.

إليه... خالد الذي أريده، تخلص من كل شيء يزعجك، تجاوز وحطم كل القيود، لا بأس أن تبدأ بقلبك، الأيام تشفي كل الجروح، الزمن طبيب قدير والنسيان شفاء عاجل ولا أحد يموت بالفراق.

يعاود سؤاله لنفسه، ما هي أسوأ الأحوال إذا رافقنا البؤس واستمر ما نحن عليه الآن؟!

ينظر لزهرة القابعة بجواره ويجيب بصمت، سنصل متأخرًا إلى وجهتنا، التوقف أو السقوط خارج تصورات سيرنا، بحزن أو سعادة سنصِّل، الفرق فقط في التوقيت، لكننا سنصل، أجزم بالسكون بعد كسر وأفتح لشدَّتِك بابًا يضُم خلايا عوضك.

(جَواهِرجِي بَاريس)

عماد، ذلك الركن الثابت شديد المحلية الذي لا يتناسب مع فخامة "جواهرجي باريس" نحيف وقصير كواحد من عيدان الكبريت، ذلك البنطال شديد الاتساع بلون الزيتون مع القميص البني بنصف الكم صيفًا والمعطف الأزرق شتاءً، ذلك الذي تحول للأسود مع عوامل الزمن.

أتحدث عن نفسي لأنني لا أجد من أتحدث إليه، الجميع هنا ينظر إليَّ كصندوق قمامة لا يتناسب مع رونقهم ويجب التخلص منه، لكن لا أحد يدرك سرعتي ولا يقوم بالمهام التي أقوم بها فضلًا عن راتبي الذي لا يكلف صاحب المحل أكثر مما ينفقه على غداء واحد، لكنه يكفيني، سريع كأنني أطير فيلقبونني "عجلة" حتى أنني لم أسمع "عماد" منذ وفاة أمي.

يدخل إلى المحل ممسكًا بذراع شريكته وعلى وجهه ابتسامة يقتسمها معها فتتسع ملامحهما وتضيق أعينهما وتشرق لهم الحياة، على يمينه أمه وعلى يسارها أمها، مشهد يوحي بالفرح، الترحيب من الجميع والمباركة على الحضور وأمنيات بحياة سعيدة، وظيفتي التي أمارسها حينما لا أجد ما أقوم به، أراقب ملامح الوجوه وأفسر الهمس واللمس وأخمن قصصًا تجري باقتضاب، عصفورة رقيقة تمارس حقها في اختيار هدية زواجها وما ترتديه طول عمرها، يحيطها غرابين يطبقان على أنفاسها، تلك التي تزيح ابنها من جانبها للتمكن من إحكام الحصار

عليها وإبداء اشمئزازها من كل ما تختاره، والأخرى التي تطعن في ذوقها وتمسكها بالرديء،

شريكان ينشدان الحب وكهلان يشبان حربًا، تضرب الحماة من البداية لتخبرها أن رأيك لا يخصك وحدك وأنني طرف من حياتك، وتخبرها الأم أنها حتى بعد زواجها لن تخرج عن سلطتها، أتابع العصفورة الرقيقة وهي تجرب الخواتم ما بين التقليدية والحديث والموضة الجديدة لتعلن صراحة أن الاستقلالية لي وحدي، تقفز بسعادة ممسكة بيده أنها أخيرًا وجدت ضالتها والتي تسكن بين أصابعها، ملامح مصارع يضرب خصمه بكل قوته ثم يصافحه بعد نطقه "وها أنا انتصرت"

يدخلان بوقار وهدوء، يبدو في أوائل الأربعينات بنظارته الطبية وخصلاته الفضية المتبعثرة وسط شعره، ملامحها نقية تحاول الابتسام قدر الإمكان، منتصف الثلاثينيات أو أكبر بقليل، تحمل بين يديها علبة كبيرة من القطيفة، تبدو جديدة وكأنها لم تعش سنوات طوالًا، الحفاظ على الحب يبقيه جديدًا ونظيفًا ورقيقًا، يبدو أنهما عاشقان منذ أن تزوجا، ينطق الأستاذ حسن "سبعة وأربعون ألفًا وثلاث مائة" تنظر له وكأنها تقول، لكنك تحتاج خمسين ألفًا، تتحدث عيناه، بقي القليل وسأدبره، تقول دعني أتصرف وامنحني فرصة أن أقدم لك أي شيء، بسرعة تخلع الحلقات المعلقة بأذنيها واضعة إياها على الميزان ثم محاولة ترتيب خصلات شعرها، تبتسم بحب مساندة له وعلى وجهه ملامح امتنان رغم اجتياح الحزن تفاصيله وغياب ملامحه.

"يشتري لها الذهب تعبيرًا عن الحب وتبيعه من أجله لإثبات الغرام"

الحب يضيء رغم كل شيء، على الأقل يزيل كآبة الأسود ويمنح للحياة طعمًا.

خمسينية تقبل في تثاقل، تتحامل على عكاز من المعدن، بشرة بيضاء في حجابها الأسود وعباءتها، ممتلئة الجسد وتتنفس بصعوبة رغم خطواتها البسيطة، أسرعت لمساعدتها في الدخول، أثارت انتباهي ودهشتي على عكس ما يحدث في تلك المواقف، لا تهتم بالسعر الذي تبيع به، إذن لماذا تبيع، مهتمة فقط بالخلاص من العلبة التي في يدها، مصنوعات جديدة وعصرية، الأمر مُحير، تنهدت بسعادة إنجاز مهمتها، أسرعت أساعدها وبطريقتي في الحديث أجذب منها طرف الكلام لتفصح عن ما يشتت عقلي، قالت إنه لابنتها، تلك الوردة المتفتحة التي قطفها سهوًا وألقاها غدرًا، ما زالت تحبه رغم خيانته وتركه، تقاليد عائلتنا تحكم للعروس بالذهب، أراها تذبل أمامي وتبني أحلامًا عابثة على أمل أنه سيعود، قررت التخلص منه لأحرق أي أمل لديها وأحرق قلبه كما فعل بابنتي.

الخِسة والدناءة، تلك الصفة الحقيرة التي تميز فيها الإنسان على الحيوان، بل وبرع في ممارستها على أقرانه.

يدخل بمرح وفرح وسعادة تسبقه تفرش له المكان بالأمل، ملامحه تضيء وعيناه تنطق وصوته يرقص، أراقب ملامحه التي تتفحص قسم الأطفال، أريد خاتمًا لصبي، أو سلسلة لأنثى، ربما أسورة أو ما شاء الله، لا أعرف.

في النهاية قال: أريد خاتمًا وسلسلة بنفس الحرف، سأله الأستاذ حسن: ما الاسم؟!

أجاب: لا أعرف، لكن زوجتي أخبرتني منذ نصف ساعة بخبر الحمل.

تدخل مع لابنتها لتختار هديتها بنفسها، تبارك لها في كل لحظة وتقول للقادم والآتي إن ابنتها الأولى على مدرستها، ابنتها شَّرفتها أمام الجميع، خطف نظري الصغيران في الخارج، تبدو عليهما المراهقة الحالمة، لم يدخلا المحل بالتأكيد، الملامح الأولى لكل شيء، الحب الأول بسذاجته وبرائته وخجله وعنفوانه وأحلامه وقصر عمره، يشاهدون المعروضات بالخارج، يمكنني توقع الحديث، يقول لها بعد عام أو عامين سنكون بالداخل نشتري هدية خطبتك، تبتسم بخجل وأمل وتدقق في الأشكال، يختلفون حول خاتم، يقول إنه تقليدي وتقول إنه رقيق، ثم بعد جدال طال له ما طال يتفقان أخيرًا، سخرية تزيدني ضحكًا وألمًا، يستحيل أن تبقى نفس المعروضات بعد شهر في الوقت الذي لا يملك فيه ما يجعله يدخل المحل بل إنه يمارس رفاهية الاختيار والجدال والاختلاف على الذوق.

في ملامحه التعالي هكذا في نظري كل من لا يبتسم، أنا أفرض ضريبة على كل من يقابلني أن يصافحني بابتسامة حتى لو لم يعرفني أو لم نتقابل سابقًا، دون الابتسامة تعقد معي اتفاقية على الجفاء، أشحت بنظري عنه إلا أن توتره ونفاد صبره جعلني أشفق عليه، علبة فاخرة بها العديد من القطع، ما بين النسائي والأطفال وحديث الولادة، كلما أخرج أستاذ حسن قطعة ليزنها، جذبها بسرعة وقال إن تلك القطعة بالتحديد لا يرغب في بيعها، كل القطع يقتنصها حتى لم يتبقَ شيء فأخذ علبته ورحل، قبل أن يخرج تجاذبت معه الحديث بنوع من المرح، قلت له دعني أريحك، قال ليتك تريحني بإرسالني إليهم في السماء.

حتى القدر قد بخل عليَّ واستثناني من الحادث وحال بيننا الفراق المُوجع.

عماد اسمًا وعجلة صفة، تعودت أن أفرح مع الفرحين وينقهر قلبي مع الموجوعين، أرقص وأجمع علب الكولا والعصائر، ثم أواسي بصمت أو عون للموجوع قلوبهم، سريع في الجري وأكثر سرعة في فهم الناس.

***

(هَذِيان)

ظلامٌ دَامس، أجاهد لقتل دموعي، لم أكن يومًا أرهب الموت، لكنني ورغم كل شيء أرهب الفقدان، أتحامل جاهدة إلى حيث غرفة أبي، أتلصص على استحياء، ينتشلني من الضياع صوت أنفاسه، لكنها في ذلك الوقت تُمثل لي أروع سيمفونيات بيتهوفن، إحساس بالراحة أو قل هي الحياة.

أعود سريري للنوم، لا أدري كم من الدقائق أو الساعات قد هربت، إنّه الصباح، بِئس القلب الذي ينبض بالخوف، يحثني "الخوف" ذلك اللعين لأسرع إلى أبي، كأنني في سباق مع الموت من منا سيصل إليه أولًا، رأيته يبتسم، فابتسمت بكل ما أمتلك من جهد، ما زالت أنفاسه نبض قلبي.

لا أدري ما به، رفعت صوتي قليلًا: أبي، ماذا بك؟!

لا شيء يا صغيرتي، لكن هناك خبر مؤلم، "ريم بنا" مُفضلتك توفاها ربَّ الحق.

أيها الموت، ماذا تريد مني؟!!

لماذا تذكرني بك دومًا، أنا حقًا لا أنساك، أرجوك ابتعد عن وجدان أبي.

وكأن العالم كله توقف، لا أرى ولا أسمع ولا أشعر سوى بتلك العبرات التي تسابق بعضها على وجهي، احتضنته بكل ما أوتيت من قوة وبكيت كأنني لم أبكِ من قبل. كل هذا العالم ثقيل على عيني.

واكتمل المشهد بصورة جدتي، وكأنَّ حزنًا واحدًا لا يكفي.

أعلم أن البكاء لن يعيدك إلى تلك الدنيا، ولكنني أفتقد الحياة أسفل قدميك، عجيبة هي قدرة أصابعك على مسح أحزاني، وحل مشكلاتي، أبكي حالي بعد فراقك لو تعلمين.

في مكان ما في هذا العالم، هناك جرح علق بأوتار قلب، أحدهم يتجرع كاسات الفراق، هناك قلبٌ توقف عن التنفس مثلما تذوقت، تلك أسباب كافية لأكف عن الابتسام، وسأترك لكُم الهراء.

لم أكن يومًا بهذا السوء الذي أنا به الآن، ربما كنت، لكنني لا أريد أن يطيل كل هذا الخراب الذي يشملني.

الكثير والكثير من الكتب، العديد من الأوراق، الألوان التي تضم روحي، أكواب ساخنة ولا يهم ما بداخلها، ضوء شمس قادر على إحيائي، الأخضر الذي يشملني، أقدم لكم اعتذارًا من عمق روحي، والندم يفيض من كلماتي، لقد كانت أكبر أخطائي أنني أبحث عن نفسي في مكان آخر.

بالتأكيد سيمر كل مُر، هذا لا يعني أن الفرح سيطرق بابك، لا تنس أنك بائس، ستعيش أيامًا فارغة، تنطق كلمات باهتة لا حياة فيها، لقد انتهت مرحلة الفعل ولا عليك سوى رد الفعل، انتهى الانتظار، التفكير،

الشغف، حتى الصدمات لم تعد تُؤثر بك، لم يتبقَ لك شيء تعافر ألا تخسره، سيتحول النوم إلى أقصى أمنياتك، لكنك لم تجده.

يقال أنه السرير، أو مضجع النوم والراحة والسكون، كاذبون بحق ربَّ السماء، لم أنعم فيك براحة، لم تغلبني كوابيس الموت سوى عليه، متى أتخلص من ذاك العذاب! أحبُ ربي كثيرًا، وأتشوق لرؤياه، لكنه الموت الذي يغلبني بصديقه الذي يصحبه دائمًا "الفقدان"

عزيزي الفقدان، أرجوك بحق السماء، لا تحول بيني وبين أبي!

لست مستعدة الآن للفراق، لست مستعدة له للأبد.

أنا بخير، نيابةٍ عن كل تفاصيلي التي تخبرني عكس ذلك.

في رهان خاسر مع الفراق، ضحكنا معًا ألا نجعله يحول بيننا، لم نتعوذ منه، ها هو الآن يضحك بكل طاقته ويفتح شدقيه على دموع كانت.

للفراق أربعين لونًا، تذوقتها وحدي.

لا أعرف من الذي ابتدع السؤال عن الحال، أود أن أعرفه لأرسل له برقيات غضبي، المفترض أننا بخير، لا أدري ما الذي يحدث، لولا سؤاله "كيف الحال" لظللنا على يقين أننا بخير، ولا نعرف معنى سوء الحال أو نحياه.

كيف أمست؟!

متعبة، منهكة، حانقة، رافضة العالم، أمست محبة للجميع أو ثائرة عليهم، أمست سعيدة للغاية رغم بكائها المتواصل وتنهيداتها التي تملأ شقوق غرفتها.

الأشياء كلها اجتمعت واتحدت واتفقت وتعاهدت على أن تثير بكائي، وتلعن غبائي وتذكرني بضعفي وخيباتي المتكررة.

وكيف أصبحت؟!

أصبحت ناسية أو متناسية، كطفل رضيع لا يعرف سوى أمه وأبيه، لعلها الأيام القادمة ليعرف إخوته، أصبحت بذاكرة جديدة أكثر تحفظًا في استقبال زوار جدد إلى عقلها، أصبحت بخير كثير رغم بشاعة العالم.

صباح الخير لذاتي، لروحي، لأحلامي التي أيقظتني، صباح خير وقوة وأنا، صباح يخلو من كل ما يصيب قلبي بالألم.

أمي، صباحك خير بقدر حبات اللؤلؤ المضيئة حين ابتسامتك، أريد أن أخبرك أنها معجزة كونية أن تظهر الشمس والقمر في صباح واحد، أعترف بانتهاء عصر المعجزات، لكن الذي جعل الجنة تحت قدميك، جعلك قمرًا يضيئني.

إنَّه الليل الدّامس الذي لا يعرف جندي ضعيف مهزوم سوى منامي، يسرع ليعد سيناريو جديدًا ليضفي على قلبي البائس رهبة الفقدان، ساعات قليلة من التلصص على أنفاس أبي، إحساس الراحة المؤقت ليشرق الصباح ويعلن أبي "دكتور أحمد خالد توفيق في ذمّة الله"

وكأن الدموع كل صباح تمارس رياضتها المفضلة "السباق على وجهي" أصبحت أشعر أنني لا أشعر، لا أحيا، لم أكن يوما على تلك الأرض.

الأشياء الجميلة تموت سرًا، لكنني كنت وما زلت أحبك، لا أدري كيف ولماذا تزهر بداخلي كلما قرأتك بين السطور.

الأجواء تلك الليلة مؤلمة، كل شيء يثيرني للبكاء، رُبما أشارك القمر وحدته هذا المساء.

نفس ندبة الأسى، مليارات التساؤلات، الدقائق الكئيبة التي لا تمر، الجبال القابعة المعلقة بأنفاسي، أسود قاتم لا حياة فيه ولا روح، بئس المشاعر كافة، تتجدد جميعها حتى لو كان الفراق الألف. بِئس المشاعر جميعها لا أعرف منها سوى الفقدان.

طبيبي العزيز، أخبرني ما هذا الذي أحياه؟!!

-لا شيء جسديًا، كفي عن هذا الهراء.

لقد شفيت تمامًا من كافة الآلام الجسدية، روحي فقط هي التي تؤلمني.

ما لا نبوح به، يُرهق أرواحنا، يقضي على سعادتنا، يحطم خلايا صبرنا، يَشل بقايا تفكيرنا، يجعلنا رهينة انتظار فارغ، يدمي قلبا سكن به. نزيف صامت لو تعلم.

فوبيا أن أكون أنا، كما أنا، أو أن أكون كما كنت، أو أن ازداد ليتضاعف ما أنا عليه الآن...

المساء الحبيب في ذاك اليوم، لا أدري كيف أصبح حبيبًا بعدما كان بائسًا.

سأذهب للنوم لا شك، تلك ليست المشكلة، الأمر في حد ذاته يتعلق بمتى سيأتي النوم إليَّ، متى تغادرني أفكاري وأوهامي، ومتى يغادرني أرقي وجزعي، متى يسكن داخلي في سباته كما حاربت لينام الآخر جسدي.

روحي فقط التي ترهقني، وتلك التي بحاجة للراحة.

وذنب يطبق على صدرك ويفتك بمتعة المعصية، فتسرع لباب توبته مستعظمًا كِبر إثمك وقلبك يفيض من الندم، فتوبة، فخشوع، فقبول، فمداومة، فإعظام وإجلال وإكبار ومغفرة، فالحمد الله الذي ابتلى قلبي بالذنب ليثقل ميزاني بالتوبة.

أنهيت وضوئي للعشاء، كالعادة يصاحبني خيالي وتفكيري إلى حيثُ أصلي.

رأيته يسرع إليَّ، خوف... رهبة... لا أدري ماذا أفعل، لا أحد ينقذني! إلى أين أجري أو أسرع لأختفي منه!!

أعرفه فهو يقصدني... لم يخلصني منه أحد.

أجاهد لأرفع صوتي، أمي... أبي... أفيقوا من نومكم... ها هو قادم نحوي، لا أدري ماذا أفعل!!

انتبهت إلى سجادة صلاتي التي تلامس قدمي، تركت العالم كله وشأني...

أكفكف دموعي ب"الله أكبر" رأيته يبطئ في مشيته، أحسست بهدوءه وتوازنه... أكملت فاتحة الكتاب، رأيته يبتسم، فيبطئ، فهدوء، فراحة...

أنهيت صلاتي، عرفته فلم أرهبه، جاء ليحمل أمانة ربه إليه.

ما أعظمك ربي تبدل الخوف أمنا وراحة، تتسلم أمانتك بعد انتهاء صلاة العشاء!

ما أسعدني، روحي تعانق السماء في معية ربها، وقلب أبي يدق بالحياة.

أبي..

لست متأكدة بعد هل أحبك أم لا، لكن فقط كن بجانبي للأبد، لا تغادر تفاصيل روحي، بعدما فارق جسدي عالمكم.

أبي..

أحبك كثيرًا، أحُبك إلى الحد الذي لا يعرف اكتفاء، حينما تقرأ كلماتي، تأكد أنني سعيدة، ها هو قد تحقق دعائي، اغمر قلبك بالفرحة.

ستقابل جنديًّا اسمه الفقدان، اقتله، نعم اقتله، فقد حال بيني وبين ما أحب، حال بيني وبينك، الأصعب من الموت هو رحيلي دون أن أخبرك كم أنا أحبك...

فلتقرأ ما يطبق على صدري... كلما خشيت فراقك بكيت داخل حدود أوراقي...

وشيء من الحقيقة يخفي خلفه أعوامًا من الألم، الذكريات الجميلة صنعت فقط لتبقى خنجرًا يمزق خلايا صبرنا حينما تنتهي، فتقف عاجزًا تتأمل انهيار خلايا فرحك وتحولها لحسرات تضيق على أنفاسك وتأسر روحك وتقيد تفكيرك، الذكريات الجميلة ما هي إلا ألم مؤجل يشتد كلما ازدادت مساحتها ليقل تحملك ويزداد تآكل نبضات قلبك.

أبي...

أعلم جيدًا أنك ستترك فراشك ليلًا لتأتي تتأكد من نومي العميق، وأنه لا يوجد ما يعكر صفو أحلامي، أرجوك كف عن هذا، أنا سعيدة جدًا ما دامت أنفاسك تعزف في سلام.

والتعريف الأكثر دقة للموت، ليس فراق الحياة، ولكن مغادرة القلب، سأظل نبضًا داخل قلبك يا كُلُّ روحي.

أحُبك لحين نلتقي في فردوس أعلى لا فراق فيه.

(جُمهُورِية الشّعر)

النعناع والزنبق والنارينج، فناء واسع والشمس تداعب شجر الليمون، تسجيل بدائي وصوت حسناء يُردد هنَّا دِمشق.

وهو يركل الكرة لتصطدم بالجدار بأحجاره العتيقة ليجري خلفها بلا وعي، يراها تصرخ في وجه أمها، تتوسل أباها وتستعطف جدها، تهدأ حينًا وتثور حينًا وتتألم في كل الأحيان، يلتقط صوتها يقول "لا أحُبه، يستحيل أن أتزوجه"

وصل أخيرًا لكرته وركلها ودار خلفها داخل أسوار الدار، اختفى الصراخ وخرج الأب ورحل الجد ليسقي الزرع والأم تصُبُ الشاي بالمطبخ، يقترب من مكانها، يراها تسكب شيئًا على جسدها، وصال! ما هذا! وصال ماذا تفعلين!

لا تجيب وتشعل الثقاب في ثوبها، تشتعل النار ويدها تجفف دموع عينها وتبتسم من بعيد، تودعه وداعًا مأساويا.

وصال! ماذا تفعلين! يصرخ بأعلى صوته، أمي؛ وصال تحترق! أمي..

مشهد يستحيل أن يفارق خياله وترك أثرًا عميقًا في نفسه، صمت طويل سلّمه للانعزال وتأمل الأشياء حوله، هناك صمت أنيق لا يسمح لنا بالبّوح مهما كان الوجع، طفل بعقل كهل، الحب العربي سجين ولا بد له

أن يتحرر، يصاحب البحر ويشاركه همومه ثم يودعه ببيت شعر حر، يرافق السماء نهارًا ويتغزل بالقمر ليلًا وقضية إنصاف المرأة هدفًا يعيش لأجله.

الكلمات قد تكذب لكن المواقف دائمًا تقول الحقيقة.

حِس مرهف وقلب ينبض والشعر رفيق وملجأ ومأوى.

طفلٌ هادئ ثم شاب منطوي وأبٌ عظيم وكهل حكيم.

درس الحقوق وعشق السمراء وكتب عنها ولها الشعر، أحب كثيرًا، تعلق بأمه ووقف بجنازة جده وخلف أبيه في قيادته.

أحب فكتب ديوانه "قالت لي السمراء" يتذكر وصال تحترق لتحافظ على حبها فيكتب ديوان "كتاب الحب" تبهره الموسيقى والرسم فيكتب ديوان "الرسم بالكلمات" يسترجع بيته فيكتب ديوان "طُفولة نَهد" يحترق لفاجعة ١٩٦٧ فيكتب قصيدة "هوامِش على دفتر النَّكسة"

تزوج ابنة خاله وقال لها: لم يحدث أبدًا؛ أن أحببت بهذا العمق

أني سافرت مع امرأة؛ لبلاد الشوق

وضربت شواطئ عينيك كالرعد الغاضب أو كالبرق

فأنا في الماضي لم أعشق بل كنت أُمثل دُور العشق.

وأهدته توفيق وهدباء، تمُر الأيام والشهور والسنين الأبناء تكبر والشعر ينمو ويتفرغ للكتابة، الحياة والموت ككل شيء يتقفى أثره، وترحل

زوجته ومن بعدها توفيق وقد صار طالبًا بكلية الطب في جامعة القاهرة، ليتّ الشِعر يستطيع أن يوصلك رثائي، الحياة والموت كلاهما مؤقت، يهرب من الحزن كهروبه من الموت لكن قدر الموت لا هروب منه، الشعر صديق وقائد، عن الشعر والجنس والثورة، يتفانى في الكتابة ككل انتصاراته، ندوة شعرية وهي تجلس أمامه بابتسامة مشرقة، المرأة دائمًا قضيته فما بالك بمن أثرت قلبه ولم يستطع تجنب التفكير بها؟!

بلقيس الراوي يسعدني رؤياك، أنا مش أشدَّ المعجبين بشِعرك سيد نزار.

وهل يَخفى القمر!

أجمل حب هو أن تحظى بعاشقة ثائرة ومُتمردة وثرثارة ومُتهورة وعقلها ممسوس بالجنون وتخلق المشاكل! تزوجها وأنجب منها زينب وعمر، أَحبها كثيرًا فكانت قضيته وقبيلته وقصيدته وما زالت الحياة تمارس مآسيها معه وتواجهه بحقيقه الموت وتصدمه بالفراق وتفزعه بالوحدة، تلقى بلقيسه مصرعها في حادث مدبر ويعيش بالفراق وحيدًا يكتب الشعر ويرثيها ويفتقدها وينعي نفسه دونِها، قال لها: لم أحبك كشخص فقط بل أحببتك كوطن لا أريد الانتماء لغيره.

عيناكِ أخر ما تبقى من مكاتيب الغرام.

ينتصر للمرأة فالقاعدة عنده "المستهين بقدر النساء، يجب أن تُعاد طفولته من غير أم"

سفيرًا لسوريا في الولايات المتحدة، تنقل بين باريس وجنيف ثم أخيرًا لندن.

نزار قباني، المدافع الأول عن المرأة، عاش يسدد ضربات الحياة ويصارع الأحزان لينقل لنا شِعرًا حُرًا جديرًا بالحب، ترك لنا ميراثًا أدبيًا عريقًا من الشِعر وطاقة حب يستحيل أن تنفد، كالورد تعصره لتحصد جمال رائحته. لم يبق عندي ما أقول لقد ملَّ الكلام من الكلام.

نوبة قلبية تسلم جسده للتراب، تراب دمشق التي أوصّى أن تحتضنه في نومته الطويلة.

"دِمشق، الرّحم الذي علمني الشعر، الذي علمني الإبداع، والذي علمني أبجدية الياسمين"

(مِيلَاد هِجر)

كيف يكون من الحب ما قتل وأنا بكَ أحيا!

السادس والعشرون من ديسمبر، الحادية عشرة ليلًا وهو يجلس خلف عجلة القيادة بالسيارة، وخلف المذياع كاظم الساهر يسأله بلساني "أتحبني بعد الذي كان" ليجيب بقلبه وصوته الذي أعشق "إني أحبّك رغم ما كان"

أنظر له بابتسامة وكأنه كل اعتذارات الكون عن أحزان سابقة انتهت جميعها بوجوده، ساعة فاصلة ليشرق عام جديد هو كل انتصاراته، ربما ينسى هو ذكرى ميلاده أو يشُك في جنون عقلي على تلك النزهة المفاجئة وسر هذا الثياب الذي يناقض برودة "طوبي" لكنه قد اعتاد جنوني منذ زمن.

مُمتنَّة بشدة لخلايا صبري التي جعلتني أرتب كل هذه التفاصيل وأن أستطيع لأول مرة في العمر أن أخبئ عنك شيئًا، سأقضي أسابيعَ ليست بالقليلة أعتذر لك عن غيرتي المفرطة وشكوكي الحمقاء التي تثبت صغر عقلي.

ذاك الصغير القابع بفراشه قدَّم لي أعظم تضحيات الأبناء في استسلامه للنوم مبكرًا، سأقدم له الكثير من الألعاب والعديد من الحلوى بالغد اعتذارًا عن تسرعي وتوتري وقلقي وعدم تركيزي هذا اليوم.

بالتأكيد سأتقن طعام الغد نيابةٍ عن أشباه طعام اليوم، قد كان عقلي غائبًا لما أعددته للاحتفال بذكرى ميلاد روحي.

ربما يندهش من نظراتي إليه، لكنني أدخر ملامحه بقلبي، أتساءل كيف يمكن للمرء أن ينسى ذكرى ميلاده! كيف يتوقف عن الاستعداد لاستقبال عهد جديد تاركًا ورائه كل ما مضى، تذكرت بشيء من الأسى كل الخراب الذي أهديته إياه عامه الماضي، ليت الحياة بهذه السهولة، أن أرتدي ثوب نزار قباني وأقول لكَ بعد كل هذا " تتبسم وتمسك لي يدي* فيعود شكي فيكَ إيمانًا"

الأيام سائرة بنا لكنني ثائرة عليها، لا ذنب له أن نساء الكون بأسره يهيمون به عشقًا، الأهم هو "هو" من يحب! وأين يبقى! وكيف يحيا! حتى لو كنت....

"ماضيك لا أنوي إثارته * حسبي بأنك ها هنًا الآن"

فإن كان من الحب ما قتل، فإنه قتلني بالأيام التي ابتعدت فيها عنه بناء على رغبة تفكير أنثوي ساذج.

اللعنة على تلك الغيرة القاتلة أو اللص غير الشريف الذي يسرق عمري وحبي بالبطيء أو الشاهد الذي لا يكذب عن قلة الحب أو انعدامه بالأساس، تلك الرسائل التي تصل إلى بيتي ويتساقط منها الغزل كُتِبَت له، فما ذنبهُ إذن، الأحق أنها هي المتهمة وليس هو، تقبع في المنزل المقابل وتراقبه صباحًا مساءً كأنه الشمس والقمر معًا، سأحرقها بالتأكيد أو الأولى أن أحرق غبائي الذي يثبت وبالأدلة أنني أكرهه ليس فقط بل أنني ألدُّ أعدائه.

هتف كاظم بكل طاقته " هذا الهوى نار بداخلنا" لم يكذب بالتأكيد.. ما زالت ناره مشتعلة بروحي وتحرق قلبي.

ألعن غبائي وغيرتي وجنوني فيردد "عيوب المُحب مزايا، لوّلا المحبة يا مدلّلتي، ما أصبح الإنسانُ إنسانا" صدقني سأقتصُ لكَ مني يا عمري.

قُبلة حانية على يدي اليسرى وكأنها إشارة منه ليعيدني إلى الواقع، ابتسامة حياة تشرق بقلبي ثم تتلاشى وتخلف ورائها عواصف وأعاصير ودمارًا يسع الكون، يصدح هاتفه معلنًا عن اتصال منها، لم يجبه بالتأكيد، فيضان الغيرة الذي يفتح مجالًا للشك يسِع عامًا قادمًا، تكرار اتصالات كثيفه ويزداد توتره ولم يستطع التفوه بكلمة، فقد حفظ تفكيري عن ظهر قلب فهذه الثورة بالتحديد تحدث كل يوم، تبدُل الحال ولم يتبدل لكن هذه المرة تختلف وكأن تلك الحمقاء أقسمت على عدائي، سأحرقها وهذا القرار أصبح قيد التنفيذ.

أفعل كل شيء في الحياة بحُبك، لكن تصرفاتي تثبت لكَ كل شيء عدا الحب.

اتهامات بالخيانة وقرار بالفراق وأحزان لا تنتهي وعام جديد بتمزق قلب وميلاد هجر ثم أردفت بصوت متحشرج ونبرة جندي عائد من معركة دامية، حرب ابتدأت بعقلي وأشعلتني بهزيمتها "أوقف تلك السيارة، أريد أن أنهي كل شيء، لم أستطع أن أتحمل كل هذا، لن تتغير، تغردان الحب معًا في الوقت الذي أرتب فيه اعتذارًا عن سوء ظني بكَ، فلتتركني وشأني ولتذهب إليها تبتدأ بها عامك الجديد"

تشتعل رأسي بالأفكار، سأطير وحدي قليلًا في سماء سوء ظني، ربما أتأخر كثيرًا لكنني لن أعود إلا ومعي دليل براءة جنوني نحوك.

لم ينطق بكلمة واحدة، فقط وضع رأسه بين كفيه في محاولة أن يرفع الله عنه بلائي، يصرخ الهاتف في محاولة أخيرة وبائسة للرد، مدَّ يده بشيء من الوهن ورد بصوت مهموس هو كل قوته، قد كانت غيرتي وفضولي كافيين أن أسمع المكالمة رغم المسافة التي بيننا، " السيد العزيز، رجاء الحضور في أسرع وقت، هناك حريق بالمنزل والصغير في حالةٍ يُرثى لها بعدما نجحت الجارة في انتشاله من الموت"

لا أدري كم من الوقت قد فات لكن هذا المشهد لم يُفارق عقلي لحظة، لكنني أريد أن أراك، ليتك تسمعني، أخبرني أي طريقة في العالم تكفر لي عن خطيئتي.

يرتفع صوت زئيره من بعيد محدثًا ضجة في روحي قائلًا بقسوة "مُحكمة" يرتدي غيابه زي القاضي متفحصًا تفاصيل قضية "غيرتي عليه"

أقف في قفص الاتهام منتظرة حضور قلبه الشاهد الوحيد على براءتي، يرتفع صوت جنون ورعونة أفعالي السابقة في ذهنه مرتدية زي النيابة تقدم له دليل إدانتي، أرى ملامح غضبه مشتعلة لكن هناك قلبي ينتظر قلبه عله يأتي ويخلصني، صدح صوت غيابه مرة ثانية: حكمت المَحكمة على قلبه المتهم وجميع مشاعره بالإعدام حنينا وتجاهلا. رفعت الجلسة وأعلن الهجر.

سأطعن في الحكم بالتأكيد، ما زلت في انتظار حضور قلبه، الشاهد الوحيد على جريمتي.

سأطعن في كل شيء، هذا الشهد الذي يبتدىء بالاحتفال بذكرى ميلادك يستحيل أن يكون ميلاد هجرك، انتهى كل عهدي بالكلام وربما بالحياة إلى أن تجيب، أتحبني بعد الذي كان؟؟

***

(لِقَاء لَيلِي)

النزهات الفردية، رغبة أن تكون وحدك والإصغاء للأرصفة.. جميعها أقنعة تزين مرارة الوحدة وأن لا أحد معك أو يرافقك، ربما كذبتي وقناع وحدتي الليلة أن أعبر للأدب عن امتناني لعشقه، أن أذوب في الحب وأغرق في الحزن بإرادتي وأسبح في الرومانسية، لم أفكر يومًا أن أتخلى عن نزعة التشاؤم التي تنافي طبيعة مرهفة ومرهقة كروحي.

أنا أزهر بالحب، كل الأشياء تستحق أن تصنع بحب، الحب يضمن الجمال.

أما حقيقتي... دائمًا أشعر بالحزن، كلما خلوت للكتابة أصابتني الكآبة واتحدت الأشياء كلها ضدي، ربما لأن الكتابة تعريني أمام نفسي أو أنها تغوص بأعماقي لتنتشل كل ما ظننت أنني دفنته، قلبي يؤلمني كثيرًا والتظاهر أن كل شيء على ما يرام يحلمني عبئًا ثقيلًا، أليست الصداقة خلقت حتى يتخلص المرء من ضجيج أعماقه؟!

أجلس في حديث شيق وطويل أقصِ عمري في صمت لصديقي النيل وتناسيت تمامًا أمر الذرة التي بين يدي، لم يراعي أحدهم طول انشغالي وجاء ليفسد علينا متعة تسامرنا ليلًا واتهمني بالصمت، هتفت أعماقي "لا ذنب لي أنك أحمق" بالتأكيد لن أتخلى عن هدوئي وأقذف في وجهه براكين غضبي، أجبته ببطء أن الصمت أهم طقوس التسامر ليلًا مع النيل.

في انشغال تامٍ أتذكر هزيمة أن أقع ضحية للأوهام التي تدور في رأسي، تأسرني أولًا وتعصف بي ثانيًا فتسخر من مبادئي وتحملني ضريبة الانحناء لقلبي، سخافة كل شيء في نظري وحقارة ما يدور بعقلي.

ارتكب أحدهم جريمة أكثر تطفلا وجلس بجانبي محاولًا قطع الحديث مع رفيقي فثارت كل خلايا غضبي ضد وقاحته ثم صفعتني ووضعتني أمام نفسي في مواجهة ما أتيت لنسيانه، غير آسفة على ما أقول، إنني بحاجة للصديق حاجة الغريق للهواء، حاجة الروح للأمل، حياة ينقصها الحياة دونك أنا يا صديقي.

لو أنك هنا.. لم يجرؤ أحدٌ على اقتحام صمتي.

ثم قال بنبرة مُصطنعة تميل إلى البلادة " ماذا بكِ! يبدو عليكِ الشرود"

صدقني تلك المرة لن أفسد ذوقي، ميراث حقارة التفكير وانعدام الشعور يزعجني مهما حاولت تجاهله.

فقط سأكرر الامتنان للأدب، سأجيب إن كنت تسأل عن الشرود، فقط أمنح القمر فرصة ليتأملني، أدّع له وقتًا كافيًا ليكتب أبيات شعره عني ليقصها على نجومه، أعرف أن إحداهنّ تغار مني، ويبهجني أن تبقى ساهرة كل هذا المساء تراقب حديثي مع النيل، ربما برد الذرة قليلًا، لكن متعة صمت الحديث تشعل بداخلي نزعة تأمل روعة الليل، قبيح جدًا الظلام والأغلب أنه شبحًا، لكن القمر بضعفه وضجره وصداقاته مع ملايين النجمات تجعل المشهد غاية في المتعة، سأشاهده كل ليلة وأتركه ينام ليغفل عن كوني الشمس، يحيني الشغف ويقتلني الانطفاء.

(عَودَتِي للعَالَم)

المختلف في الأمر أنني اعتدت الأمر، لا فرق في التوقيت ما دام كل شيء سيحدث! تلك قناعتي التي تريحني حتى لو انحصر يومي في عدة أنشطة لا تخرج عن إطار احتياجاتي الشخصية، لكنني لم أعانِ من الأمر وهذا ما يعنيني وربما أقف متعجبة أمامه بعض الوقت.

ميزة الحياة أنها تُعاش كما هي، وأنا والكسل توطدت صداقتنا منذ عهدٌ طويلٌ!

أستيقظ بتثاقل وأعاند الحياة في أن أمارسها، رفض مطلق لمغادرة السرير إلا بعد ساعتين، ذلك البطء السخيف الذي لا يحمل في طياته أي إثارة ونتائجه سلبية على كل حال، غسل الوجه فصلاة الظهر ومجرد التفكير ماذا أعد للغداء فيصدح آذان العصر، تلك السرعة المتمثلة في تبخر الزمن وعدم ملاحقة الحياة، أقضي يومي كله على تلك الأريكة المريحة دافئة ظهري في الوسائد القطنية أفكر في كل شيء، في الناس والوقت وما أريده وما حصلت عليه، حسرة أن ترى عيوبك ولا قوة لديك لتغيريها، تحتاج الإرادة التي لديك لكنك تبخل على نفسك بالمساعدة أو أن استسلامك للكسل أصبح إدمانًا، تشاهد الحياة من النافذة دون السماح لجسدك بممارستها، كطفل عابث يطفئ التلفاز محاولًا الاحتفاظ ببرنامجه المفضل، لا يدري أنه يحرم نفسه من متعة

المشاهدة الحالية وأن القادم خالٍ تمامًا من كل ما يخشى أن يفقده، آذان المغرب فالعشاء فوجبة الغداء ونوم طويل لصباح تالٍ.

ذلك الصباح الذي لا يحمل إلا يومًا إضافيًا في تعداد الحياة وينقص من رصيدي على الأرض مثله، عن تلك الدقيقة المفجعة.. شمس الأصيل المتجهة لطريق الغروب، تودع العالم بمشهد حزين، قدر الماء يغلي على النار في مهمة تسوية البيض، نفس الجلسة المريحة أو اللعينة على الأريكة بوسائدها اللينة، رحلة طويلة مع تفكيري في حضرة كسلي الذي يقيدني، تبخر الماء وأسودَّ قعر القدر والبيض فهلك واتسع الأمر ليشمل انفجارًا بموصل الغاز، دقيقة واحدة فارقة بين عودتي للعالم بعد دوي الانفجار، دقيقة واحدة بل لحظة فقط تفصل بين الحياة والموت، تحولني من زوجة لأرملة وأم مكلومة على طفلها.

ربما لا يحتاج المرء إلى إرادته ليتغير، بل أمس الحاجة لصدمة ليفيق.

***

(إعدَام وَردَة)

فستان أخضر قصير يزين وردة تتفتح في ربيع عمرها، تعقد جدائل شعرها برقة ندى يزيدها بهاءً، أشواكها لم تقو بعد والحياة تنتظر عطرها.

تجلس أمام أمها تجمع خصلات شعرها المتطاير بعد ساعات لعب عديدة، أخبار المذياع لم تتغير، اختطاف أطفال واغتصاب فتيات وتجارة الأعضاء وزهرة عمرها أمامها لا تعي شيئًا، تزداد الجرائم ويقل صبرها ويضعف قلبها ويسود العالم في وجهها. تبكي بحسرة على ابنتها ووحدتها، أن ينحصر دور الأب في إعالة أبنائه بتحوله لمصرف آلي فقط؛ كمثل أن تتحول الفتيات لعاهرات طالما ستقدم ضريبة ذلك بعدة دولارات.

عجيبة هي قدرة الدموع على تحرير القلب من قيوده، وردة... احضري حبيبتي.. أريدك الآن.. اتركي اللعب قليلًا.

صغيرتي.. سنسافر الصباح بيت جدك، العالم لم يعد يحتمل، أخشى عليك من كل شيء، هيا ساعديني بالدخول دائرة الأمان.

تغلق دفتر ذكرياتها وتنزف فيضان دموع يغرق روحها، تسعة أعوام يا أمي، عمر انهار وزهرة ذبلت من فرط الاعتناء بها، كره عميق سبّبه الوحيد هو الحب الكثير.

جرائم خطف الأطفال تتزايد فتحرميني من اللعب ومن الأقران فأقف خلف شرفة أودع طفولتي بعين زائغة وقلب منكسر.

يجلس في حديقة البيت ويتابعني بنظرات مخيفة، لماذا ترين بشاعة العالم ولا تلمحي نظراته!! يناديني والصمت يجيبه حينما أسافر في خيالي لا أعود بسرعة، كيف حال أبي الآن؟!

الاختباء خلف الأسوار ليس حلًا، وردة بلا أشواك لم تستطع أبدًا الدفاع عن نفسها، اتركيني للدراسة، امنحيني حقي في التنفس أرجوك.

أعطيني حقي في الخطأ، أريد ممارسة للحياة، كفاني سمعًا عن البشاعة؛ أريد أن أجرب أي شيء حتى لو الجحيم ذاته.

لم أجرب الحياة يومًا لكن أعتقد أنها أكبر بكثير من الليل الطويل الذي لا ينقضي أبدًا إلا بالنوم أو البكاء، والنهار الذي يشرق بجدالات صاخبة ووعود كاذبة وأسطوانات متكررة محورها الخوف عليَّ، مهما عظمت بشاعة العالم فهي ليست بقسوة جدران كئيبة تطبق على صدري ونظرات متوحشة من ذئب يحرسنا.

ظلام الغرفة، سحابة الكآبة، غيوم اليأس وأعاصير خيبتي تحاصرني، لا أتخلص من كل هذا إلا إذا أمطرت، أبكي بحرقة وقلبي ينزف همومًا.

حقًا لا أصدق هذا القدر من الأسى، اقتليني إذن.. صارت كل لحظاتي تأهبًا للموت.

أعتقد الآن أن الانطفاء حقي، لا يمكنني التخلص من معتقلك البغيض، لم أتصور أبدًا أنني سأنجرف للضياع، بإرادتي أصاحب نظراته البشعة كشعاع لامع يضيء ظلام ليلك.

أيها العالم الذي لم نتقابل أبدًا لكنني أحبه، لا أريد حلًا وأعترف أولا بخطئي، التعاطف معي أو نصب محاكمة إدانتي لا يهم لأنني لا أكف عن جلد ذاتي، أنا هنَّا وأكتب ليسمعني أولًا الآباء ومن ورائهم المراهقات...

إلى أمي... سلام إلى روحك الطيبة التي أحبتني فوق حدود العقل، لا يمكنني وصف بشاعة العالم دونك، سأتم العشرين الأحد القادم وما زالت ضفائري تنتظر أصابعك، كنت دومًا تحذريني من قسوة الشارع والغابة التي بالخارج، بالتحديد كل شيء بعيد عن نظرك هو الجحيم الذي يمزقني، سلمتني فريسة سهلة للجهل والخوف والذئب الذي يحرسنا، حاول استمالتي بالمال لكنني كنت أطمع في الحياة، لم ييأس أبدًا.. وعدني يحررني من أسرك، وسؤاله المعتاد هل أنا بحاجة لأي شيء الذي يحتويني كأنه أهلي.

غازلني حينًا واستعطفني حينًا واستغل سذاجتي في كل الأحيان.

لم أشعر أبدًا بوجود أبي ولم تحتضنني أمي ولم أرِ إلا ذئبًا يحنو عليَّ.

لم يكن يحتاج أكثر من وردة على وشك الذبول في فراش ليلي ليقطف حياتها، سقطت فريسة أطماعه بإرادتي يا أمي، أعتقد أنه من حقي مرة واحدة في الحياة أن أخطئ، يجلس أمامي على سرير مهتريء، من خلف نظارتي أراه يمعن النظر في الشمعة وهو يراني أحترق مثلها.

وكل عاهرة تخفي بداخلها قصة مؤثرة وبقايا طفولة ضائعة، حبٌ أمٍ لدرجة الجنون وأبٍ يصارع أسواق النقد المالي.

أمي.. قتلت الحياة في روحي خوفًا من اغتصاب بغير إرادتي فوقعت في خطيئة بإرادتي، كنت على حق يا أمي.. العالم بشع بما يكفي.. رغبة عميقة في الانسحاب الطويل، أسأل عن سبب حزني والصمت يجيبني، ربما الحياة لا تقبل الجميع...

***

(مَشّهد)

بحذر وبُطء وثِقل تدق الساعة في شيء من الاعتياد أنها الحادية عشر، وحدي هنا، والأيام تزداد مللًا، كل شيء يقترب من الهاوية والذكريات تخنقني وتضيق على أنفاسي، أصبح السقوط رفاهية لا تناسبي، أخلع ثوب الضحكات الذي ارتديته في يومي فقد أصبح سخيفًا وكاذبًا، ها أنا أصبحت محترفة التمثيل والكذب والاعتيادية، إلى سريري أكثر الأماكن صدقًا وأوراقي التي تستمع إليَّ دون سأم منها ولا تجميل مني، عانيت وبكيت ورحلت واشتقت وعدت وندمت واستمريت في الندم وأتقنت دور الساذجة وما زلت أعاني ولا أعرف أين المفر، الرمادي الكالح يقتلع أزهار روحي، أدون الأمنية التاسعة والأربعون بعد الألف "ليتني أنساك إلى الأبد" وأكتب بيد مرتعشة وكأنني لم أرَّ ما دونته، "أفتقدك".

ستكون الأجواء أكثر هدوءًا، سيظل هاتفي صامتًا كعادته حتى وصوته مُفعل بشدة، لن يفتقدني أحد أو يلاحظ غيابي، تزداد الساعات بهجة بتفاصيل تخلو من أحاديثي الفارغة، سيمر أسبوع أو اثنان دون تذكر شيء يخصني، سيعلن بالصدفة نبأ وفاتي، سيتفاجئ البعض بالنبأ ويردد الآخر "متى كانت روحًا لتموت"

لا أعلم كيف أكون وقتها، لكن الأكيد أنني سأكون أكثر راحة، أفتقد كثيرًا أوراقي والأخضر الجاف والنعناع الساخن، سأشتاق كثيرًا لجدالي مع أمي وتباعتي لأبي ومزاح أختي وديكتاتورية أخي، لن أستطع أن

أثور على الظلام لكنني سأظل خائفة، سأحزن كثيرًا لحياة تركتني كنت أود أن نصطلح وتشهد لي بأملي وبأسي، لكن اليأس قد ساد المشهد كثيرًا.

لا يهم كل هذا، سيأتي يومًا ويتذكرني من تذكرتهم، أوصيكم بشدة أنني أكره البكاء، عاندت طويلًا كي أقتل دموعي وفتكت بها، اضحكوا كثيرًا لأجلي، تنفسوا الأمل الذي حرمت منه، صاحبوا الأخضر واقرأوا كتاباتي واعتذروا للأمل والشمس واكرهوا الظلام، أخبروا أحدهم أنني أحببته، أخبروه أنني فقدته والأمل.

***

(زَواج اضطراري)

كنَّا نتناقش حول الاكتئاب، اتَّفقنا على أن أسوأ نتائجه هو الانتحار وتوصلنا إلى أنه لا بد الهروب من فخه وسوداويته ومن ثم الإقبال على الحياة، قال" ماذا أفعل إذن، هل أتزوج!" كانت صاعقة لا تقل أثرًا عن انفجار في وجهي.

هل تريد تعقيد الأمر أكثر مما هو، هل لك أن تساعد نفسك بألا تفكر في تدمير غيرك! هل تعي أنك تنهي مشكلة فردية بالانخراط في بركان مشاكل جماعية! لا أنت قادر على التفاوض مع نفسك ولا هذا الحيز الجديد ملائم لتعود تحل مأساتك القديمة! أنت لست جاهزًا ولا مؤهلًا لقيادة جماعة ما دُمت لم تقد نفسك من البداية، هل أنت مستعد لقيادة حياة أخرين وأنت من الأساس غارق في مأساتك!

الأساس في الشركاء هو العمل لمصلحة واحدة وهذا لا يمنع أبدًا التفاني في الاهتمام بالمصالح الخاصة، مؤسسة الزواج تخضع لهدف عام هو الأبناء، ولا يمنع ذلك طرفي الشراكة من تحقيق كيان كل منهما.

جميعنا أبناء مهما بلغ سننا، الحنان والاحتواء وحضن كحصن ويد تربت على كتفك لتزيل عهدًا من الألم، لا ذنب لأبنائك في صراعك مع الاكتئاب، الأمر أكبر بكثير، لا نريد أجيالًا بائسة، يكفي ما نحن عليه.

لا يمكن أن أشارك أبدًا في مأساة لعبة الزواج والفستان الأبيض لأتمكن من القبض على أبرياء أمارس غضبي وندوبي النفسية على طفولتهم، أغرقهم في فيضان العيب والحرام في مراهقتهم وأسلمهم للاكتئاب في شبابهم.

يستحيل أن أقف عاجزة في شبابهم أودعهم في رحلة ذهاب بلا عودة للاكتئاب، لن أقتل قلبي وأقول لهم "ارضوا بالأمر الواقع، مشكلة جيل بأكمله ولستم وحدكم"

بإمكاني الآن أن اكتفي وحدي، لا داع لأبناء يتوارثون منًّا الحزن والهم، كفى أطفالا ينجبن أطفالا، السوداوية تتسع كلما زاد بياض فساتين الزفاف.

زفاف؟؟ أي زفاف؟! إذا كنت بحاجة إلى طاقة مرح لتسخر من البكاء، فلماذا لا ترقص أو تقضي أسابيعًا تعزف على الجيتار أو حتى تستمع لأم كلثوم! لماذا تختار الانتحار!! أقصد الزواج، لماذا تغرقنا جميعًا بإحباطك!

لا أطيق فكرة الزواج لأنه قد حان وقت الزواج، كنت طفلة متمردة أرفض النوم لأن التاسعة قد حانت، ما زال هناك مُتسع لأقاصيص قبل النوم، أريد طلاء الأظافر الوردي فغدًا الجمعة وسألعب عند الجيران، متى تعقد الأمر! وأصبح لكل شيء وقت محدد لا بد أن يتم في حينه، روتين ممل لم يجرؤ أحد على كسره، هناك فجوة بالتأكيد وأصبح سؤالي ماذا أفعل بفراغي هذا، أنا بلا شيء، لا أحلام ولا طموح ولا شيء، لقب زوجة لا يكفيني وأمٌ ساذجة ليست وظيفتي.

افهمني أرجوك، الزواج حياة، استقرار، بناء، أن تبني ابنًا يعني مستقبلًا، ماذا ستقول له بخصوص المواد الدراسية إذا رسب! الأكيد أنها ليست خطأه وحده.

معنى الحياة هي استمرارية البناء، إذا لم يكتشف مهارة كرة القدم، حسنًا سنجرب السباحة، رُبما التنس أفضل، أو ماذا عن رفع الأثقال!!

الزواج حياة والحياة لا تنتهي ولا تتغير وأكبر بكثير من أن تكون بديلًا للانتحار.

متى أصبح الزواج بديل الانتحار أو الوجه الآخر له!

هل نجوت من الانتحار رغمًا عنك فقررت أن يجربه أبنائك؟!

الكارثة أن فشل منظومة الزواج ليس الطلاق -استمرار الأسرة ليس نجاح عقد الزواج- يكفي الأبناء الذين توقفوا عن الأمل، الأجيال التي تعاني فوبيا الزواج من الأساس.

فلتجرب طريقتي إذن وتنتحر، ما رأيك أن تنتحر عاكفًا ضد أوهامك لتفتك بها... يكفيك شرفًا أن الخسائر كلها يمكن تعويضها، وأنك ستظل شريدًا إلى أن تمتلك القدرة على ترميم نفسك.

***

(حَدِيث قَلبٌ)

أصبحت أكثر نضجًا، لا أقصد أنني عالمة بكل الأمور، لكن الأهم أنني تخلصت من السذاجة والمراهقة الحالمة الهشة أو الغبية.

لم يعد البريق اللامع يخطف قلبي، أصبحت أخاف من الحب على قدر طوقي لروعته وحيويته وبهجته إلا أنني أخاف أن أنجرف للضياع تحت مسمى الحب.

أخاف الضعف الذي يقيدني بقلب يستعبدني، أن أبذل قلبي في أوهام حتى يذوب تمامًا، البريق اللامع لا يخطف الأنظار فقط، بل يعدم الرؤية ويحرق الحقائق ويزيف الواقع، ألعن لحظات أرى فيها الكذب ينهش روحي فأزينه لقلبي بأعذار تشفع له خوفًا من الفراق... خوفًا من أعراض انسحاب هي تعلق يكاد يكون مرضًا أكثر منه حبًا.

أحترق كلما تنازلت عن حقي في أن يبادلني الحب، كلما شعرت أن احتياجي له شيئًا ناقصًا رغم أنه طبيعة إنسانية.

أميل للحب وأخافه في آن واحد، أشباه الحب أو الزائفين المتحايلين باسمه يسيئون لروعته.

قيمة الأشخاص عندي هي مدى قوة علاقتي بربي في وجودهم.

معادلة الحب صعبة جدًا، يأتي إليك معلنًا السلام، شاهرًا قلبه. يحسن قراءتك أو يدلي ما في جعبته عن النساء الرقيقات واهمًا إياكِ أنه أحسن أخيرًا وأجاد وصفك.

يبدأ سيلًا من الاهتمام والمكالمات المتصلة، تساؤلات برفق عن تفاصيلك ليأسرك بعطفه، نفس السيناريو التقليدي المعتاد... قصائد شعر رخيصة وكلمات حب مبتذلة عفا عليها الزمن وأحلام وردية ساذجة وأنت تهيمين به عشقً، دورك الآن في بذل الغالي والنفيس -لا أقصد قلبك- بل أقصد ما هو أغلى من ذلك، دورك الآن الوصول بسلام لموقعك في سجلات فرائسه، يقل الاهتمام تدريجيًا وينقطع السؤال واتصالات ما هي إلا ردودًا لطلبك المتكرر، الآن دورك تبرير بشاعة الموقف لاستحالة تصديقك الحقيقة الواضحة، فتلقي بالأمر على عاتق أشغاله التي لا تنتهي...

يردد عقلك صباحًا "تفاخرك بهزيمتي وانتصار حبك عليَّ وتكليله بالتجاهل والإعراض عني لم يزيدني سوى شدة في المحاولة للتخلص من أسر حبك، لا بأس، سأجاهد للمرة الألف" ويتشبث قلبك به ليلًا رافضًا أي محاولة لغيابه.

ترين حقيقة أنه انتهى من نزوته معك لكن يستحيل أن تصدقي، أنت في قبضة يده وفي سجن أسره، تخلقين الأعذار وتبكين إن صدق أي شيء توقعه عقلك، لكن أن تبتعدي فهذه رفاهية حَرمكَ منها ضعفك.

حتى في مشاهدة الأفلام، أنا من توجعه مشاهد الفراق، الوداع الذي أقف وأتحطم عنده، اللحظات التي تبكيني بينما أنت تقف جامدًا

منتظرًا ومتشوقًا ماذا يحدث بعد ذلك، كأنك مستعد للفراق أو أن البقاء لا يعنيك من الأساس، وكأن التحطم والحزن لأجلي والخطي لأجلك.

الضعف هذا قهر وأنا لا أطيق الأشياء ذات الطرف الواحد، إما أن يحيني الحب أو لا يأتي أبدًا.

هو حل لا بديل له، أن تغرسي الخنجر في قلبك قبل أن يغتالك به، تلقي بالضعف بقدر كل الصدق في قلبك، ترين الحقائق والشمس والأهم تنظرين لنفسك؛ ستقولين وقتها بشيء من الثقة "مات كل شيء يذكرني بك، لم يعد الرحيل يرهقني، متلازمة عشقك تجاوزتها، ماتت الذكرى والمشاهد... لكن الإحساس بالخيانة لم يَمُت بعد، عالق بقلبي يؤلمني، لا بأس... سأتجاوزه"

***

(رَفيق)

عزيزي الذي يسكن بيميني والموكل من ربه لتدوين رصيدي الذي أدخره لجنة الخلد، كيف حالك وكيف حالي في سجلاتك وكيف هي الجنة التي تزهر قلبي وروحي بخطاها، أتحدث إليك! ألم تسمعني؟! هل سجلت لربك حرقة قلبي على عصيان سابق؟! ماذا كتبت بشأن روحي التي تريد السماء؟! لماذا لم نصبح صديقين رغم مرافقتك لي ما يقرب العشرين؟؟ لماذا لم تهمس لي بحب أو بشفقة أو بأمل أن أمليك ما تحفظه ليوم العرض العظيم؟! لماذا لم تذكرني بالأمل الأبدي والمستقر الحق وترشدني تفاصيل الصراط؟؟ لماذا تراني أبتعد فتتركني أبتعد؟ لماذا لم تنهرني، تعنفني أو حتى تقهرني لأعود؟؟؟

كيف هو الذي يسكن بشمالي والموكل من ربه ليحفظ ما أود محوه من الكون ونفسي!! هل كان سعيدًا وهو يدون ما يبعدني عن الجنة! أم هو طيب وحزين لأجلي؟ أحزن كثيرًا وأخجل مرارًا وأكره نفسي في عين صديقي القابع بشمالي. أشتاق لرحمة تأتيني من ربّ روحي فتزهر دفاتر القابع بيميني.

سأخبرك عن صحبة لم تصلحني، وعن قلب غرس اليأس بروحي وأبكي على طفلة قتلها وليها قبل أن تحيا وعن روح تعافر فقط لتكون في جنة حلمت بها ولم تجدها، أوليس في السماء رحمة؟؟

أيها الطيب الذي يقرأ كلماتي، أخبر ربي وربك عن السعادة التي غادرتني، هل هي هناك في الفردوس تنتظرني؟؟ وعن الذي قتلني في الدنيا، هل سنتقابل في السماء وأنزعج لوجوده أم أن شأن قلبي سيتغير ولا أتذكر؟؟

عن الذين أحببتهم، هل سنجلس معًا ونحكي عن عجز الدنيا أن نبقى معًا؟؟؟ عن كل شيء يرهقني يا الله، هل ينتظرني؟؟؟

أرجوك رب اصلحني وارشدني واهدني وتُب عليَّ كي أخطو جنتك، أريد أن أحتضن نفسي بشفقة، أن أبكي كثيرًا وأربت على كتفي وأمسح على وجهي، أعتذر بندم عن سلاسل يأس سجنت نفسي بداخلها، أرجوك ربي انظر إلى قلبي وهب له نورًا يرشدني، أرجوك ربي احيّ روحي وطمئنني.

***

(رَحِيل)

ستجد أنه من الحماقة أن تأخذ قرارًا بالابتعاد عن شخص تحبه ثأرًا لكرامتك لأنه لم يبادلك الحب، ستشتاق له في كل لحظة ودقيقة وتمتلئ بالكآبة وتشاهد وجهك في المرآة يذبل فقط تحتاج أن تسمع صوته أو يضيئك بكلمة أحبك.

احتلَّ نقاط ضعفك بالتأكيد.

تحدث نفسك في المرآة لتصمد قليلًا فتقول "عيني منطقة محظورة من الدموع، لكن قلبي يفعلها، أحبالي الصوتية مشروخة تمامًا مثل مشاعري، غائب أنت ومتهالكة أنا" لكن لا جدوى.

ستعاند نفسك طويلًا كي لا تتراجع عن قرارك بالابتعاد، ستقضي تلك الأيام ميتًا لكن بشيء من الرفاهية هي أنك تتنفس ولا تتساءل في قبرك،

تقرر الابتعاد واعتزال ما يؤذيك، لكن ماذا لو كان اعتزال ما يؤذيني.. يؤذيني، يدميني، يقتلني، يفعل كل شيء، إلا أن يجعلني أحيا.

كأنني قد طُبعت على الحزن.

ليس لدي هدفا لإحباطك وأنك ستفشل، لأن كل هذا سيتحطم فور سماع صوته وستغفر وتحن وتشتاق وتعود كأن كافة دموعك كاذبة.

سأخبرك الحقيقة، ربما تراها كارثة لكنها النجاة الوحيدة لك، ستكافئك الحياة بمأزق وستجد نفسك وحيدًا طفلًا يهرع إلى أمه، لكنَّه ليس أمك، سيصم أذنه عن سماع صراخك، لن يكلف نفسه دقيقة في تضميد جرحك، سيغني كثيرًا ليخرج من دائرة بؤسك حتى لا يعكر صفو مزاجه، سيفعل كل شيء لم تتوقع أن يفعله معك، ولن يفعل ما تمنيت أن يفعله لأجلك،

هل تعرف معنى أن تصرخ كُل نبضات قلبك بالحزن!!

فكرة رحيله ذاتها "إعدام بدون محاكمة"

صعوبة في التنفس تصل حد الاختناق ولا شيء ينقذك من وساوس أفكارك، مساء مرهق وليل طويل وأفكار لا تكف عن طعناتها المتتالية لمبادئك لتلقيك في تلك الزاوية حالكة السواد من نفسك لتعترف أخيرًا بالفشل الممتزج بالعجز.

هل تعرف قسوة أن يكون الأمل مرتبط ومتركز في التخلص من نفسك!!

ستطيل غيبتك تلك المرة، تواجه بكاءًا كثيرا على ضحكات قديمة كاذبة، ثم تستيقظ من نومك بقرار لا رجع فيه هو أنك ستشعل العالم لأجل قلبك، ربما تنهار عدة مرات في كل دقيقة تتأكد فيها أنك كنت مجرد وقت لطيف، لكنك ستثأر لكبريائك بأن تعود لنفسك ومجدك وقلبك قبل أن يلاحظ أحدهم سقوطك، لكن تلك المرة لن تغفر ولن تحن أو تشتاق أو حتى تعود، تلك المرة هي النصر والانتصار والحياة التي لا كذب فيها.

النجاحات الكبيرة والخطوات المتقدمة المتكررة تزيل أي فشل، تمحو كافة الاخفاقات، حتى لو كانت قلبك.

ربما يعود مستغربًا ومستفهمًا ما أنت عليه شاهرًا قلبه ومعترفًا بالحب، سترد بفتور "لن أغفر أبدًا بشاعة الأحاسيس التي جعلتني أشعر بها، يستحيل أن أفعلها بقلبي، أن أسيق مشاعري مرة أخرى تحت وطأة قسوتك وأسلمك روحي تُعذبها بإثم الحب"

لفافة تبغ تشهد ميلادها باحتضان شعلة من عود ثقاب، دخان متطاير يأمل في حياة لا يعرف أنها ستنتهي ويختفي هو في خلال دقائق، نظرات حائرة في فراغ عنوانه الفوضى، لحية في ميلادها الأول وكأنها جنين غير شرعي يضفي على الوجه المزيد من الأسى والحزن والكثير من الشفقة، توتر يتقاذف قلبًا مستمتعًا بعلو صوت دقاته، عين تقاوم البكاء وقلب يخشى الفراق أو حياة تخلو من ذاك الغائب.

خطوات حائرة تأتي من بعيد، تصل إلى أريكة عتيقة تثني قدميها لتجلس أسفل قدمية وتضع رأسها بصمت على ركبته، تمد يدها لتصافح يده لتخلص بقايا التبغ من قبضته، صمت مديد لكنه لذيذ، صوت متحشرج يعقبه "آسفة"، عتاب بعيد وغفران عظيم وقلب خُلق للتسامح أو أنه لا يعترف بالمذنب سوى أعظم رجال الكون، ابتسامته ميلاد جديد، رفعت رأسها من على ركبته وتوسطت الأريكة وأشرقت بابتسامتها تبادله الحياة بعد غيوم الخصام، عودة سريعة لطفولتها وبهجتها وروحها التي تعشق، أغرقته في النكات وزلزل الجدار بضحكاته، ثم قال بروح مزهرة وماض به القليل من اليأس الممتزج بالأسى "النقدين في آن واحد، يا فرح قلبي وحزن عمري" لم تستغرق

ثانية وأجابته، تكف ابتسامتك، إياك أن تتوقف عن الضحك، ضحكتك تسقط النجوم على قلبي فيضئ .

***

(مَطلُوب عَرُوس)

لم أتحدث معه ولا أظنني لدي القابلية للتعامل مع هذا القدر من التفكير العقيم، قالت لي صديقتي أن زميلها في العمل على قدرٍ عالٍ من العلم والخلق وحياته المادية ميسرة ولا ينقصه من الحياة الاجتماعية إلا زوجة، استطردت قائلة، طبيبة أو دارسة للمعمار بكلية الهندسة يريدها طويلة بقوام مَمشوق ذات وجه حسن، أخبرت رفيقاتي بإعلانها وعلى من تجد في نفسها تلك الصورة التقدم لتنال شرف الوقوف بطابور العرض على السيد المهندس صاحب السيارة والنجاح العملي الذي يتهافت الجميع على التعلم منه.

نجحت أخيرًا في ضبط انفعالي لأخفي عصبيتي، قلت لها أنني أحمد الله إن تلك الأمثال موجودة في الواقع، لأنها تستفزني كتابيًا...

السيد العزيز، تحية طيبة وبعد،

تحية طيبة للحياة التي خلقت للجميع ليس للمعماريين فحسب، تحية إجلال وتعظيم وتوقير للنساء اللاتي أعزهنّ الله وجعل الرجال فقط من يأتون للنساء وليست النسوة من تخطب للنسوة.

لا أخفي عليك أبدًا حزني على شهادتك الجامعية التي لا قيمة لها مقارنة بتفكيرك السّاذج.

من حقك في الشرع أن تكون زوجتك جميلة ومن حقك أيضًا أن تناسبك في الطول لا شك، لكن عن الشهادة الجامعية! لم أذكر أبدًا حديث للنبي محمد ولا آية من القرآن تقول أن مجموع الثانوية العامة له علاقة بمقياس العلم والعقل، بدليل عقلك وتفكيرك.

لا أحط أبدًا من قدر الطبيبات أو دارسات الهندسة ولكني أستاء جدًا منك، ومن يقينك الخفي أن من دون الهندسة دون.

الزوجة أولًا أم ومربية- أرجوك راجع حكم الشرع في إلزام الزوجة بالتربية لا الزوج-

إن كان اختيارك لشريكتك نابع من انصرافها للعمل لتشاركك الأعباء المالية، فقد أغفلت حق أبناءك في الرعاية والاهتمام، وأغفلت حقها في حاجتها للراحة، وأغفلت حقك في الرجولة، بالتأكيد تعلم أن الرجال قوّامون على النساء.

وإنّ كنت تريدها طبيبة لتقدر جهدك المبذول في العمل لتساعدك في تهيئة ظروف النجاح، هذا حقك لا شك، لكن هذا يعني أنها ستخلع عباءة دراستها وتلقي بها خارج منزل الزوجية، هنا أنت جائر على حقها الشرعي في النجاح مثلك، هي ليست أداة لنجاحك يا سيد.

أسمعك تقول أنك سترافقها لتحقيق ذاتها ونجاحها ولن تحرمها من العمل، هنا أنت تحملها عبء الدراسة والعمل والبيت والأسرة وأنت.

كل الأشياء فارغة إلى أن يحضر الحب، هذه قناعتي، لكنني أحتقر تلك النظرة الدونية التي تقرن الاحترام والعقل بفئات معينة، سأكرر كلامي

ثانيةً، العالم تغير لأبعد الحدود، معايير الزواج القديمة فارغة، كنت أظنها انتهت مع العصور القديمة، لكنني اليوم رأيت من يطيح بالتقديم العظيم ليعود لعصور الجهل القديمة.

كنت سأنسى مصدر ثورتي وعصبيتي، تقول صديقتي أنك تبحث عن زوجة عن طريقها وطريق والدتك، اسمح لي قليلًا... أقدر وأحترم أنك تريد ارتباطًا شرعيًا ولا تخالف الدين، لكن ألم ترى أبدًا أثناء دراستك أو عملك أو حتى أقاربك من منهن تصلح زوجة؟! أشك بأمرك يا سيد.

من حقك أن تقرر مواصفات شريك حياتك لكن اعترف أنك تريد واجهة اجتماعية كسيارتك.

وأخيرًا كل اللواتي يقفنَّ في صفوف العرض عليك لتختار من بينهن، الله لهنَّ من عقلك.

***

(ضَرِيبَة)

العزيز علاء، كيف حالك! أرجوك أن تَصِل رسالتي لرفيقك، أعلم أنه المسؤول عن تحقيق ما تتمناه، لكنني لا أعرفه ولا أجيدُ لغة التحدث إليه.

سلامٌ عليكَ يا مارد في مصباحك، كيف حال العالم الذي تنتمي إليه! أعتقد أنك ستشبع فضولي للمعرفة.

التساؤل ذاته الذي يرهقني، لماذا دومًا نتألم! أقصد نحن الفئة القليلة التي قررت بإرادتها أو رغمًا عنها أن تسير في الطريق الصحيح.

لماذا دومًا نعاني ونسدد ضريبة فساد العابثين؟!

أي قانون هذا! وأي عدل أو مبرر أو عقل؟!

تعلم أن المحاضرة في التاسعة صباحًا فتصل إليها بشق الأنفس بعد صراع في موقف السيارات وعناء السفر من محافظة إلى أخرى ثم تصل وأنت تلتقط أنفاسك بمعجزة وتجلس مصغيًا بكل حواسك فتسمع السيد يقول أنه لا محاضرة اليوم لأن باقي الدفعة لم يلتزم ولم يحضر.

أي عقل هذا! بربك كذلك تعاقب من؟!

جمود فكري يصيبني بالضجر والبغض والثورة على كافة القوانين، مبدأ حقير أننا سنعاقب المُلتزم.

صدقني أن الغائب لا يفرق معه أي شيء، أنا من اقتطع من قوت يومه ليأتي يستمع تلك المحاضرة، لماذا تعاقبني على التزامي؟!

لماذا نتبادل الغباء في عالمنا يا مارد؟!

قلتُ لها أنه حرام، حفل صاخب وألاف كلمات الغزل، قبلات حانية على جبينك والترنح بين أحضانه سيغضب الله حتى لو كان خطيبك وبمرأى من أبيك.

قاطعتني وانفجرت فيَّ: انظري أولًا لشعرك المتطاير وقِصر لبسك.

لماذا لم تفهم أنني أريدها أفضل مني! كيف أقنعها أن ذنبًا واحدًا يكفيني!

أكتبُ إليك يا مارد من عالم البشر، كنت أتمنى أن أغادر قاعة الاختبارات ليست صحيحة كل الإجابات ولكن حينما أخطئ لأنني إنسان، أجد من يجادلني ويناقشني في خطأي لأعرف الصّواب مدى حياتي، كنت أرجو ألا أظل جاهلة بحجة أنه قد فات زمن الاختبار ولن تفيد تصحيح الإجابة، الآن عرفت أنها تفيد.

نفس النظرية العفنة" أن تنفخ غلك في الزبادي الصافي شديد البرودة حينما يحرقك الحساء الساخن"

مبدأ حقير جدًا، أن تلقي بغلك على الضعيف وتفرغ فيه غضبك لأنك بالتأكيد لن تجد إلى القوي سبيلًا، وإن وجدت.. سيفتك بك، فلا تنسَ أن تُقبل قدم ملك الغابة وتُقدم له فروض طاعتك وأنتَ مطأطأ الرأس بعدما تتأكد من مسح دم الأرانب عن وجهك الدّنيء.

إننا نحتقر أبناء القاتل لكننا نرّهب سكينه وغدره فنبتعد عنه بل ونتملق إليه إذا سمح الأمر.

أعتقد يا مارد أن العالم داخل مصباحك أكثر هدوءًا، أو أن القوة سائدة في الأغلب، لكن الأكيد أن الضعف مُنعدم هناك، أجبني من فضلك، لماذا دومًا نعاقب المُلتزم!

***

(إليه)

سلامٌ عليكَ في منفاك، تحيةً طيبةً وبعد،

كيف حالك أولًا! أعلم أن رسالتي تأخرت، الأسباب خير وأنت تعلم وأخباري تصلك بالتفصيل فأنت جيد في معرفة أحوالي.

أرجوكَ أخبرني بحالك، قص علي تفاصيلك دفعة واحدة، لا تتوقف عن الكلام أبدًا، شهور عديدة ألتفت لذاتي وتناسيت تمامًا وعدًا كان يربطنا.

الذي يرسل لك أخباري لم يخبرك أبدًا أنني في أفضل حال، أنني لم أرَّ نفسي ضعيفة لحظة منذ أن رأيتني أبكي أمامك، بكيت وتألمت وحزنت وكدّت أن أنهار لكنني أبدًا لم أسمح لنفسي بالانكسار، لمحت الضعف في قلبي تجاهك وأيقنت أنك لا يليق بكَ لين قلبي، تحديت كل وعد حب كان...

النار التي كانت في قلبي انطفأت تمامًا منذ أن رأيتك على طبيعتك، منذ أن تخليت عن نظرة المُحب التي تراك ملكًا متوجًا وشمسًا لا تغرب، انهلت على نفسي كيف لي أن أقع فيك! كيف لي أن تحدثت إليك دقيقة تحت وهم العشق! لله قلبي وبراءتي وسذاجتي.

دعكَ من أمري الآن وحدثني عن نفسك، كيف أنت وكيف هي!

هي، تلك التي تخلف مكاني لأنك لم تستطع أبدًا أن تعيش دون مصاحبة إحداهُنّ، أرجوك أن تختارها جميلة كالبدر، طويلة وممشوقة وشامخة كقلعة فرعونية أصيلة، قمحية كعراقة النوبة ومتوهجة كبيروت.

أرجو أن تكون متجددة تعرف معنى الحياة وتعيشها، صلبة كدمشق وغجرية تثور على واقعها، قوية كفرسان بابل، أن تكون امرأة لا مَثيل لها، أرجوك اختارها أفضل مني، لن يسمح لي كبريائي أبدًا أن يُقال أنك وقعت بعدي في حب امرأة عادية، لا أسمح لنفسي أن أراك مع امرأة لا ميزة فيه سوى أنّها أُنثى، التي تحل محلي يجب أن تكون فريدة، مزهرة وقوية وبائسة.

وأنتَ يا عزيز، لا تتوقف أبدًا عن العمل، اجتهد قدر استطاعتك، لا أحب أبدًا أن أراكَ ضعيفا، سافر إن أمكن وتفوق قدر المستطاع، كُنّ شيئًا أرجوك، لا تجعلني في صراع مع نفسي أنني يومًا أحببت رجلًا ضعيفًا، اثبت لي مرة واحدة فقط أنك تستحق ساعة ضاعت من عمري.

أما عنها، أرجوك افعل شيئًا من أجلها، الحب أن يسقط من عينيها دمعًا فينزف قلبك دمًا، أما أن تتركها تصارع الموت وحدها هذا الجفاء بعينه.

اسعدها يومًا أو حاول لترضيها أو حتى كُنّ رجلًا لا يتكرر في عالمها، لا تجعلها تقع في فخ بغض الرجال بسببك. وأخيرًا، كُنّ بخير للأبد لتراني أثأر لوعدي للقمّة التي حلمت.

(شَمس)

مَاذا عن الخيال؟!

أنتَ هناك تتوسط مائدة طعام أبدعت في تجهيزها، كل شيء على ما يرام ما دامت يداك تحسسته، أجلس على يسارك في واجهة شمس قلبي التي أشرقت لتكون ابنتي، ستمارس طقوسك المفضلة في إثارة غيرتي وتطعمها وتتضاحكان سويا إلى أن أتدخل بصفةِ أمٍ وقلبُ طفلةٌ مراهقة فتذكرني بجودة طعامي الذي لا يرتَقي سوى لقفص العصافير التي تتلاعب به شمس معكَ، تتضاحكان طويلًا وأنهض أنا سريعًا لأغلق الباب على الصغير القابع بسريره والذي أحتسب نومه أفضل انجازات يومي، محاولة بائسة أن أشكك في جودة طعامك لتجيب هي الثانية أنه أروع ما أكلت، تلك التي ورثت منك القدرة على إثارة غيظي، أخيرًا هنَّا تذكرتوا أنني الزوجة والأم لتأتي هي وتضع قبلة حانية على وجهي وتردد أنتَ أنكَ سعيدًا بطعام العصافير الذي أجيد صنعه.

رُبما تكون جالسًا مُمسكًا بحاسبك الخاص منهمكًا في عملك، ستتأخر وقتها كثيرًا لتشاركنا مشاهدة الكارتون، لم تكُف عن غيظي، ستتركني كثيرًا أدعوك أن تنهي عملك، سيجف صوتي وربما ينفد وأنت لا تجيب، ثم تأتي شمسك، لتغلق أنت حسابك وتسرع إليها تتبادلون العرائس وتعيدون تشكيل مكعبات بيت واسع، بالتأكيد ستجيد الخيال كأمها، وتتقن التنفيذ كأبيها، سأتابعكم من بعيد في محاولة بائسة لينام

الصغير، فتهمس إليها في خطة جديدة... أنني السلة وهي معها الكرة لتحسن تصويب الهدف إلى وجهي، لتعلي صوتك أن هذا خطأ وكيف لها أن تفعل ذلك، لا بُدّ لها أن تتدرب كثيرًا لتحسن توصيل الهدف إلى عيني، فتزداد غيظتي وحيرتي وأبكي كطفل أصغر من طفلتي، أعاود طلب السلام لترجع ظهرك للوراء واضعًا قدمًا فوق الأخرى وهي النسخة الثانية منكَ، تتبادلون المناقشات إلى أن تعفو عني ونعقد اتفاقية سلام، أعلم أنها ستدُوم ربع ساعة لكن ليس هناك حلًا آخرًا.

ستعود متأخرًا عن وقت العمل، بالتأكيد هناك ألعابًا جديدة وحذاء يناسب رقص الباليه، فستان جديد لذكرى ميلاد شمسنا، ابتسامات تشرق لها الحياة ويزهر لها قلبي وأنا أحبُك كثيرًا، ستخبرنا أنه الصباح فلنستعد لسفرًا تجهز له منذ أيامًا ليليقُ بعامًا جديدًا لزهرة عمرك، ستقبُلك هي بسرعة وتسرع لتلبس جديدها، وأسرع أنا لتجهيز الحقائب ورؤية الصغير وأنام لرحلة غد، أستيقظ بخيبة أمل هي كل عمري التي أحيا معها، لا أنت هنا ولا هناك شمسًا ستشرق ولا صغيرًا يبكي لأحتضنه، هو فقط الخيال الذي يحي روحي ويدمي قلبي ويذكرني بفراقك.

***

(صَدِيق)

في الأساس لم أتوقع هذا الغياب، صدمني طول الوقت والصمت المبالغ أصابني بالدهشة وفي كل الأحوال فاجئني هذا التغيير الكبير.

أظُن أنه غياب متعمَّد أو أن شيء على غير المعتاد سيحدث.

عاد يسألني هل كنت حزينة لغيابه أم أن شيئًا لا يعنيني! أخفيت الحيرة وأعلنت الفضول وأجبت بالمنطق؛ أي شيء يستحق أن أملأ قلبي بالحزن؟!

ليس لأنني أحب الحياة وأكره الحزن لأنه مُرادفًا للموت، لكننا أصدقاء.. أصدقاء أي شركاء في الإنسانية دفاعًا عن قضية واحدة هي ألا يشعُر أحدنا بالوحدة أو الغربة، شركاء لا يعني أبدًا أن نلازم بعضنا في كل شيء ويترك أي منا حياته السابقة! هدفنا أعظم من ذلك بكثير.

نحن وقت الصدق وقت العدم وقت الأشياء التي لا تظهر أبدا، نحن لصعوبة الطريق والمسير وليس زائفين مناطق الوصول والتصفيق عند القمة!

مؤلمة جدا الآلام البكماء، لا يمكنك التحدث عنها ولا هي تعلن عن نفسها في جسدك، فقط تآكل قلبك وتمزق روحك، الأكثر فتكًا وأشد قسوة هي الآلام المتلونة، تغلي بداخلك بينما ابتساماتك وتردد صدى

ضحكاتك يطبع على وجهك الاستمتاع وأنتَ بالكاد تفكر في الخلاص من نفسك.

الصداقة فقط لتلك الأوقات الكئيبة.

صداقتنا أو شراكتنا ألا يشعر أحدنا أن الآخر ثقل على قلبه أو يحجر على حريته، أقدر تمامًا ضغط العمل أو حقك الأصيل في الانفراد بذاتك ولقاء أقرانك أو على الأقل مساحتك الشخصية في فعل اللا شيء.

إن طال وقت انتظارك فأنا في عالمي وإن أسرعت بطلبي فأنا أعد الدقائق التي تأتي بكَ.

سألتني بنبرة من يلقي طعمًا وبمنتهى السذاجة لم يصبر لإلتقات صيده "ماذا لو كان ما تبحث عنه يبحث عنك؟!"

=قلت لك "سيجدني بالتأكيد، حتمًا سنتقابل، سأسعدُ كثيرًا وأبتهج، سيبادلني الابتسامة ويزداد القرب ويحلق القرب، سأحلم كثيرًا ويملُ سريعًا، وأنا طفلة شديدة التعلق، سيشبعُ فضوله وأستغرق في حلمي وينضب اللقاء ويقل الوصل ويحل علينا الهجر.

سأبحثُ عنه وعني، سأجدني في زاوية ظلماء يغرقني البكاء، سأسعدُ كثيرًا وأبتهج أنني هنا وقلبي، سأبادلني الابتسامة والحنان والكثير من العطف للطفلة الساكنة بروحي، سأنسى شأن الذي هجر والذي ضجر والذي ملَّ وأهتمُ كثيرًا بأمري، سأحلمُ كثيرًا لكن بيقظة، ويزداد القرب لروحي وتعود الطفلة لمرحها وأعود أنا لأرشدها وتحتضننا حقيقة حلم عافرنا لأجله، لم يخلق قلبي ليمل مني أو يشبع فضوله سريعًا أو يبتعد

لبوادر حزن في سماء روحي، وأنا طفلة شديدة التعلق بحلمي وأملي ولن أتخلى عن الحياة التي تبهج قلبي"

لكنك لم تفهم أبدًا أنني كنت حزينة لأجل غيابك، أقصد الغياب المُتعمَّد الذي يهدِف لتحطيم كبريائي فألحُ في طلب قربك، لم تفهم أبدًا أنني أواجه الغياب بالغياب، لتصبح فقط مجرد حضور باهت لا يُمثل شيء لروحي.

أقف مع ذاتي قليلًا أتأمل سؤاله إن كنت حزينة لغيابه وطريقته لاستدراجي بحديث لا أنويه وأشياء لا تخصني، قلت بشيء من البرود.. أقرُّ أن شراكتنا هدفها سعادة الآخر، أما أن يكون غيابه سببُ حزني فتلك أنانية لا تُمثلني! كونه سعيدًا هو الهدف وليس أبدًا أنني محور تلك السعادة.

من حقِ كل إنسان أن يجد مُتنفسًا خارج كل شيء حتى الصداقة، أما أن تتضمن صداقتنا تلك الميزة، فهي الاستمرارية التي نَسعى إليها.

***

(غيم)

العاشر من أغسطس وتدق الثانية ظهرًا، الغيوم تفرض قوتها على السماء والبرودة تمارس سلطتها على جسدي النحيل، كل شيء مثير للسواد في عيني، أصابني اليأس في قلبي فأعماني عن شمس صيف ساطعة ومحرقة، أنظر بأسى لتلك الجريمة في يدي، شهادة جامعية تحمل عار الامتياز وشباب حكم عليه بالإعدام لحين تواجد فرصة عمل إذا لم تحضر محاميًا مُحنكا اسمه الواسطة، هاتف محمول يصدح أو ربما يصرخ ويواسيني حزني، عن ماذا أجيب يا أبي! كيف أخبرك أنني سأظل عبء على كاهلك! كيف أخبرك أن حصيلة دراستي قابعة أمامك في إطار زجاجي لم أمتلك سعر المنظف الذي يزيل عنه الغبار.

رأيتها تأتي من بعيد، ربما يحركني نحوها الشفقة، لكنني الذي أحتاج منها العون، العديد من الرسومات الزيتية، أدوات زينة فرعونية، رمال ملونة داخل بلورات كريستال وعطور عتيقة وهذه تجلس بابتسامة واسعة وقدم صناعية تزيدها جمالًا واحترامًا وأملًا، تحرك يديها باتجاه زيوتها فتزيدني صغرًا في عيني، ابتسامة ثانية وكأن قلبها يحتضن الجنيهات القليلة كأنها كثيرة.

لم أحتاج أن أفكر كثيرًا لأعرف من منا المُعاق، اقتربت منها وتفهمت بسرعة ماذا أريد، قد كانت هيأتي توحي بعودة بائس إلى روحه، تحدثنا طويلا وقررنا أن نسرق وكان قرارًا أسعدنا ما تبقى من عمرنا، أن نسرق

من زمننا العمل والجد والإصرار، أن نحقق بعيدًا عن محامي الواسطة، أن نكون لأننا نريد أن نكون، أن نحلم لنأمل ونضحك ونحيا.

***

(ليونيد)

أنا جميلة جدًا، عيناي تلمع بالحب وأبتسم بأمل، أعشق الاختلاف وأتطوق للجمال، يأثرني التجدد ولا أراني أبدًا في النسخ المتكررة، عداء أبدي مع التقليدية.

وكيف لا أعشق الاختلاف وأنتَ دومًا تخبرني أنك في حيرة من أمري، ليس لدي طريقة محددة ولا ثغرات يعرفها أحد فيتمكن مني.

مختلفة ومتفائلة ومتمردة أحيانًا، وفي المجمل مدلّلة.

لا أعلم سبب سعادتي تلك.. يبهجني أن قلبي ينبض بالفرح، لن أحمله جهد البحث وراء الأسباب، تكفيني النتائج فحسب. تشبه محاولة النهوض بعد طول فشل، تروي الأمل بداخلي فأعشقك.

أتطوق للجمال فوقعت في أسر قلبك فغمرني العالم بالروعة واستقبلني قلبك باللين وأحسن سكني بين أضلعك. أقف خجلًا أمام رسائلك، فبأي قدر من الجمال تستحق أن أجيبك!!

أحب التجدد لأنه يلمع داخل عينيك كلما فعلت شيء يعجبك أو لأنني أعشق عينيك من الأساس.

أتابع شفتيك وهي تنطق "حبيبتي" فأراهما حدود مدينة فاضلة يحيطها الأمن ويسكنها الأمل ويملؤها اللطف.

يصيبني الدوار وأنا أسمع اسمي منك كرائعة من سمفونيات "أندريه ريو"

النُسخ المتكررة ليست أنا وأنت يليق بكَ كل شخصياتي، أضبط انفعالاتي وأتحكم في مزاجيتي وأضاعف مرحي وأتخلص من غضبي.

مهمة شاقة أن أروض شخصيتي لكنها ليست مستحيلة طالما قلبي أحبّك.

أنا جميلة جدًا لأن عيناكَ لا تستحق إلا الجمال وأنا جميلة لأنك تحبني، وأنا أحبني لأنك تحبني.

أؤمن بقدرة الحب ولا أستهين بمعجزاته، بإمكان الأرض الصخرية أن تحتوي قطرة الندى لتزهر الأمل، إنَّ الحب يحتل القلب فيخلقه من جديد.

عزيزي ليونيد، خِطاب عاجل لم يكتمل.. دائمًا إيماني بالحب هو القدرة على تحريكك نحو الكتابة، لا أتعجب اندفاعي نحوك بالقلم، فدعني أغرق في الكتابة للنجاة من حبُك.

تفهم الأمر جيدًا واعتن بأحرف كُتِبَت لأجلُك.

عزيزي ليونيد، أعتذر عن خطأ مشترك صورك في عقلي محبا،

أنني كل يوم ومع كل شخص أقابله، أقع في غرام الشخصية الخيرة العاقلة والناضجة وبالغة الرقة والعطف التي تقبع في أعماقي.

وأخيرا اكتشفت أن المشكلة تكمن في ذاتي ليس فيهم، الخذلان صناعة ذات محلية، تبدا مع شعور بريئ من القلب يساعد العقل في تضخيمه، اكتشفت أنني مع كل شخص انسج من خيالي مجموعة من الأوهام والتصورات والصفات التي أتمنى أن تكون بداخله، وأحاول أن أبحث بداخل تصرفاته ما يؤكد وجود تلك الصفات لأهيم به عشقا وأهتف أنني قد وجدت فارسي، أحلامي لا تكذب، تكذب المواقف وبدوري أتجاهل الحقيقة وأبحث بكل طاقتي أن أجد صورتي بداخله فلا أرى إلا مجرد أشباح، أقف أمام الخذلان وجها لوجه يصفعني ويحطم ما أبدعت في رسمه.

وأخيرا، أن الحياة يمكن لها أن تتحول حقلا للسعادة ومادة خام للأفراح ومنتجعا للمرح فقط إذا سكنها الحب.

حُزنك، فقدك، وحدتك، ضعفك، ألمك.. أنا بهم أولى، أحق، أجدّر، فكُن لي...

عزيزي ابني المستقبلي، كيف حالك! أشتاق إليكَ كثيرًا، أرجو لكَ أن تكون بخير إلى أن نلتقي وإلى ما بعد أن نلتقي، لأخبرك كم أحبك، لأحدثك عن تلك الحكايات والأقاصيص التي تتغذى على بطولتك.

زياد، أدهم، إثار أو حتى مُهاب ربما تكون عمرو أو معتز، لا أعلم ما اسمك ولا يهم كل هذا، الأهم هو أنك أولى خلايا قلبي أو تلك التي ستنمو وتكبر كلما كبرت لتزهر بداخلي الحب واللين وتسجل قلبي داخل دفاتر الأمومة.

أشتاق لرؤيتك كثيرًا، أتلهف شوقًا لاحتضانك وسماع نبضات قلبك، لكنني رغم شوقي أسارع الوقت الحائل بيننا لتأتي وتجد أمك جديرة أن تكون أمك، أقرأ مئات الكتب فقط لأعلم كيف أجعلك تتوقف عن البكاء حينما يصارعك ألم بالبطن ليلًا أو تثور عليكَ أسنانك تلك التي تشهد ميلادًا جديدًا.

أعتكف أسابيع ليست بالقليلة على أفلام الكارتون -ليس لأنني أحبها- بل لأن أكون رقيبًا على ما ستشاهد، أقرأ كافة أقاصيص الأطفال لأملأ جزيئات عقلك بالتنوع، لن أجعلك رهينة للتقليدية، أكتب لأجلك، لأجل أن تفخر بي، سنقرأ سويًا منذ أن ينطق لسانك "ماما"

سأشتري لك العديد والعديد من الأوراق، سأعلمك كيف تكتب والأهم أن تكتب، لك مُطلق الحرية فيما تدونه، تلك هي أبسط حقوقك في الخصوصية، لكنني انتزعت لنفسي الحق أن أقرأ ما تسجله، أن أعرفك بين خلجات نفسك، أن أطل على نفسي من نوافذ عيونك وكيف تراني لأكون فقط كما تحب أن تراني، ستساعدني أن أغير عيوبي التي لا أراها.

ستكبر وستعرف كم أحبك، سيغير وجودك كل أقنعة القسوة التي أبدعت في رسمها على هيئتي، أنت فقط الدليل على عمق اللين القابع بقلبي.

ستكون عاقلا كأبيك و ناضجا كأمك، لا يُهم كل هذا، فقط تعلم من أبيك أن تكون وأن تصل إلى ما تريد لأنك تريد.

سأترك شأن السياسة والرأي العام لأبيك، سيعملك إياها كما علمني كثيرًا، سأتعلم لعب الكرة، بالتأكيد سترث عشقها كما أبويكَ، ربما الآن أبغضها لكن أباك يقول سيعلمني حبها، بالتأكيد سيفعل.

أعدك يا صغيري بكل ما يعنيه الحب، سنلتقي وأخبرك أنك قلبي.

ابنتي المستقبلية؛

تحية طيبة وبعد، أولًا وثانيًا وثالثًا وإلى ما بعد الألف أحبك كثيرًا وهذا مبرر من المليار لأكتب لكِ تلك الكلمات، لن أروي لكِ الحكايات التي تنتهي بأن يقع الأمير في حب الفتاة الجميلة وبذلك الحب يتخلى عن كل الفوارق، لن أجعلك في انتظار أية شخص ليجعل لك مكانة وقيمة، أنت من يصنع مكانته بنفسه.

لن أجعل كل أحلامك ذاك الأمير وكيف تبهرينه بجمالك البراق، سأجعل لكِ عقلًا يشع نورًا كلما عانق صفحات كتاب.

سأروي لك سيّر الإصرار والصمود، سأحك لكِ عن الأمل، سأجعل كل وصياتي لكِ ألا تتخلي عن حلمك.

سأغرس فيك أن طموحك أكبر بكثير من كونك الفتاة الجميلة، بل أنتِ الفتاة القارئة، العالمة، الحالمة، الماهرة، أنتِ الحياة، أنت التي تشرق لتبهر العالم وليس الأمير.

ستكونين أروع بكثير من أن يثير إعجابك كلمات مدح زائفة، خطاب عاجل ولكن فقط لأقول لكِ أنك التي تنير الأمل بداخلي... سأكتب لكِ بعدد أنفاسي.

***

(نهاية البداية)

لأن الروايات الطويلة أبكتني كثيرًا، ولأن قصص الحب حاليّا تستغرق عدة أيام وملايين الساعات من الألم، كافة قصص الحب تتهشم بنفس الطريقة، لا يمكنني التحدث الآن... ظروف عملي تؤرقني... مرهق بشدة... اعطني حريتي قليلًا... لا تُطِّبق على أنفاسي... غيوم شك واستجوابات متكررة، رحيل أشخاص وانطفاء أرواح، كُل شيء يدفعك للانهيار وأنت مُصر على المواجهة، لا تظن أنك انتصرت، أنتَ فقط تتأقلم؛ لأن طاقتي لا تتسِع لكثافة الأحداث وسخافتها ويقتلني الفراق بشدة حتى لو كان سطرًا هزيلًا، ولأني لا أستطيع التنفس دون الكتابة، قدَّمتُ لكُم بعض خواطري الأثيرة، حديث نفسي لنفسي بين السطور، ما دُمت تقرأ كلماتي فأنت صديقي، فلتكرمني بحسنٍّ ظنَّك أو تدعو لك كلما طرأ البكاء عقلك وأنتَ تستمع إليَّ....

(أمي قبل كل شيء)

إهداء . .

للكهف الذي ضمني "أبي وأخوتي"

إهداء خاص . .

للصديق أوّلًا والناقد ثانيًا والمعلم ثالثًا والدكتور رابعًا، الذي يقرأ هرائي إلى أن أصبح كلمات، الذي شاهد سقوطي وإصراري وجدِّي ويأسي ومقاومتي إلى أن أثق بقلمي، لن أستطيع حصر ما قدمته لي ولن أوفيك شكرًا،،،

الصديق: مصطفى ربيع.

إلى صغيرتي، شروق رجب محمد، المشاغبة المرحة اللطيفة والودودة وبالغة النقاء، أحبك.